اقفش ڤامباير

© حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

اسم الكتـــاب: اقفش ڤامباير
تـأليـــــــف: نيرة المصري
تدقيق لغوي: رنا أبو الغيط
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
النـاشـــــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

القـطـــــع: 21X14
سنـة النشـر: 2025

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 31742 / 2025
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 681 - 4

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-681-4

اقفش ڤامباير

رواية

نيرة المصري

إلى جميع من قابلتُ في حياتي من "ڤامبايرز"،
شكرًا لكم جميعًا على إيصالي لتلك المرحلة من
النضج والوعي، والتي جعلتني مؤهلة للكتابة عنكم
والنظر للأمور من منظوركم، بل ونقل وجهة
نظركم إلى العالم أجمع.. إليكم أُهدي تحياتي
وشكري.

نيرة المصري..

مقدمة

ڤامباير.. كلمة طالما ارتبطت بأفلام الرعب الشهيرة في هوليوود، لم تكد تسمعها حتى يتبادر إلى ذهنك أبشع مشاهد لوحوش شبه آدمية تنقضّ على فرائسها لتمتصّ دماءها في مشهد مرعب يشيب لهول بشاعته صِبى الصبيان، وبصورة مُقزِّزة تتنافى مع الطبيعة البشرية التي من المفترض أن تمثل أرقى معاني التلطّف والجمال... ولكن هل فكرتَ يومًا ما أن هناك نوعًا آخر من تلك الوحوش ماصّة الدماء؟ بل هل توقعتَ أن تقابل أحدهم في خضم حياتك اليومية؟ إذا وجّهتَ ذلك السؤال دونما إيضاح، أكاد أجزم أن ملامحك الآن تحولت إلى الدهشة والإنكار، بل إنك قد تنعتني بالجنون، وفي هذا معك كل الحق، ولكن اسمح لي عزيزي القارئ أن أفسّر لك وألقي الضوء على وجه آخر ربما هو أشدّ قماءة لتلك الوحوش التي لا غذاء لها سوى دماء ضحاياها.. نعم أشدّ قماءة.. فالوحش الصريح يمكنك تمييزه بسهولة، وقد تستطيع تجنبه بشيء من الحذر والحيطة، ولكن النوع الآخر من هذه الوحوش، والذي نحن بصدد التعرّض له في روايتنا هذه، هو الأخطر، ولكن قبل الخوض في الحديث اعذرني واسمح لي أن أسألك سؤالًا آخر: هل قابلتَ يومًا شخصًا ما يبدو اللطف على مظهره لدرجة تكاد تقنعك أنه ملاك يطير بجناحين؟ أو بأنه هبط لتوّه من الفردوس الأعلى في مهمة ما، وسرعان ما سيعاود إدراجه إلى هناك؟ ومنحته من الثقة حتى تحول

إلى جزء لا يتجزأ من حياتك، بل إن حياتك من دونه شبه مستحيلة، وانخدعت بابتسامته البريئة، حتى استفقتَ على صفعة زلزلت كيانك ووجدت نفسك تقف وجهًا لوجه مع أحد هؤلاء الوحوش الضارية التي لا تعلم سبيلًا للرحمة وتعيش على امتصاص طاقة ضحاياها وتستمتع برؤيتهم تائهين.. ضائعين.. لا يعلمون للسعادة سبيلًا؟

هذا هو النوع الثاني من أنواع تلك الفصيلة التي تتمتع بهيئة البشر، ولكن بقلوب أقسى من الجليد وأشدّ ضراوة من أعماق الجحيم ذاته...

لن أبالغ إذا وصفت هذا النوع من تلك الوحوش بأنه أصعب وأخبث وأخطر، وتكمن خطورة هذه النوعية في قدرته العالية على التخفي والاختباء.. نعم فهو ماهر في ذلك، حيث إنه قد يكون له من الملامح أكثرها براءة ووداعة، ويتمتع بابتسامة بشوشة تجعلك تهرع إليه وتتخذه ملجأ من متاعب الحياة ومصاعبها، وهنا يبدأ في نسج شباكه اللزجة عليك ويدخل في أدقّ تفاصيل حياتك اليومية، وفي تلك الأثناء يقوم بدراسة شخصيتك بكافة جوانبها مركزًا على نقاط ضعفك ليستغلّها في وقت الحاجة، ولا يتجاهل نقاط قوتك، على العكس فهو يدرسها جيدًا ويعلم كيف السبيل ليضعفها حتى تتحول إلى فريسة سهلة يُشبع بها طاقته...

نوع من البشر لا يتورّع عن امتصاص سعادتك وأي طاقة إيجابية قد يلمحها بداخلك ليتغذى هو، نوع يستمدّ طاقته وقوته من

ضعف ضحاياه وبراءتهم.. ينتشي نشوة لا تضاهى إذا دمّر حياة أحدهم، ويشعر بحقد طاغٍ إذا ما رآه نهض مرة أخرى واشتدّ عوده وقاوم وانتصر.. حقد يجعله يدمّر نفسه في نهاية المطاف، ويكون جزاؤه من جنس عمله..

إن كنتَ قابلتَ أحدًا في حياتك يحمل تلك الصفات، فاعلم أنك في حضرة ڤامباير ساقه القدر إليك ليكون اختبارًا: هل ستمكّنه منك وتتركه يتغلب عليك، وأنت من هو على جانب الحق والخير والمؤيَّد من الرحمن الرحيم وملائكته؟ أم أنك ستستغل ذلك التأييد حق استغلال وتنتصر عليه وتسحقه وهو المؤيَّد بإبليس، وتنصر راية الحق والعدل وتمضي في حياتك قدمًا معلنًا الرحمة والرقي والإيمان؟ ولتعلم قبل الدخول في تلك المعركة أن ذلك الوحش ومن يؤيده من أضعف ما يكون، ولكنه ذكيّ ماكر يعلم كيف يضعف نقاط قوة غريمه حتى يتملّك منه، ولكنه ليس بالقوة الكافية التي تمكنه ممن هم أنقى وأطهر...

هناك بعض الأشخاص يحملون أمراضًا اجتماعية خطيرة ويسلكون طريق – الڤامباير – ليعوّضوا بذلك نقصًا تسلّل إليهم عبر السنين حتى تمكن منهم وتوغّل في طباعهم وتوحّش، وجعلهم لا يتورّعون فعل أي شيء في سبيل تعويض ذلك النقص قبل أن يقضي عليهم، وجعلهم يختارون من ميكانيزمات الدفاع النفسي أسوأها وأدناها لكي يعوّضوه ويخفوه عن أعين البشر، بعد أن وسوس لهم شيطانهم بفعل هذا وجعلهم يسلّمون له أنفسهم دون قيد أو شرط وبكامل

إرادتهم، بعد أن رأوا في ذلك الطريق، والذي زيّنه هو لهم بدهائه ومعرفته بضعف أنفسهم، بأبهى صور الزينة الزائفة وسُلطات الدنيا الزائلة، حتى استفاقوا على حقيقة الأمر وأقرّوا بضعفهم وقلّة حيلتهم، ولكن بعد فوات الأوان.. فعلى الرغم من تمكنهم من ضحاياهم في بعض الأمور إلى حدّ إلحاق الأذى بهم، إلا أنه (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)، يأتي نصر العزيز المقتدر ليعزّ المظلوم ويحيق المكر السيئ بأهله.. وتستفيق الضحية في الرمق الأخير وتنفض عنها آلام السنين وتنهض من استسلامها لذلك القامباير وتدرك أخيرًا مدى ضعفه، وأنها بإيمانها ورقيّها ونقاء قلبها أقوى منه وممّن يؤيده، وتهزمه شر هزيمة، وتجلس على عرش انتصارها وهي تراه يهوي بين شرور نفسه وسيئات أعماله، لا تشمت، ولا تستعذب أناته وصرخاته المستغيثة، بل تحمد الله على نصره، وتستعيذ به مما آل إليه حال ذلك الوحش، فهي ما زالت ولن تزال صاحبة القلب النقي والأخلاق الراقية التي تلفت إليها أنظار الجميع.. حتى الوحوش...

*****

فتحت عينيها ببطء، تثاءبت بتكاسل وهي تتساءل: أين أنا؟ وما هذا المكان الرطب الذي يحتويني؟ مرت دقائق من الصمت دون أن تحصل على إجابة، لا أحد يجيب، حتى استوعبت فجأة أين هي.

نعم، أنا هنا بداخل رحم أمي، هنا أجلس وأترعرع وأُصان، هنا الخدمة خمس نجوم (أكل ومرعة وقلة صنعة) كما سمعتُ إحداهن تقول.

نعم، فأنا الآن أستطيع أن أسمع كل ما يحدث خارجًا، وأستطيع أن أُميز الأصوات. أصبحت أعلم جيدًا أن تلك الضجة الآتية من بعيد ما هي إلا أصوات إخوتي الأربعة، هم أقرب إلى شياطين الجحيم منهم إلى أطفال إذا أردنا الدقة.

كما أستطيع أيضًا تمييز صوت أمي، تعودت عليه وألفته، أسمع كل كلامها، أشاركها جميع مشاعرها، وعرفت منها أن ذلك الصوت الأجش، والذي لا يحمل أي ذرة من عطف، ما هو إلا صوت أبي، وعرفتُ منها أيضًا كم هو سيئ الطباع شديد البخل، على الرغم من كونه من أثرى الأثرياء في بلدتنا، إلا أنه قد تُصيبه ما هو أقرب إلى نوبات الهلع إذا أقدم أحدهم على طلب أي شيءٍ منه، أما إذا اضطر إلى الدفع فتجده يقوم ببعض المناورات التي قد تمكنه من توفير بعض الجنيهات أو القروش إذا لزم الأمر.

ياللحظ! فمن دون كل رجال هذا الكوكب العامر يكون هذا الرجل هو أبي!

إلا أنني انتبهت إلى كون أمي عكس ذلك، فدائمًا ما أسمعها وهي تدعو جاراتها إلى جلسات سمر في بيتنا، وتقدم لهن ما لذ وطاب (طبعًا بدون علم أبي).

شاركتُ أمي كل مشاعر خوفها وغضبها وسخطها على بخله الشديد، وعنفه غير المحتمل مع إخوتي، فقد كان دائم التوبيخ لهم، خاصة أخي الكبير (سمير) والذي كان أكثر إخوتي شغبًا، إلا أنه كان متفوقًا في دراسته.

شاركتها البكاء ليلًا عندما كان يظن الجميع أننا نائمتان، سمعت همساتها وهي تشكو إلى الله سوء خلقه وجبروته.

شاركتها انتفاضة جسدها ورجفتها رعبًا منه، وهو يصرخ على إخوتي بصوت هادر شديد الغضب إذا عاد إلى المنزل مساءً ووجدهم مستيقظين يضيئون المنزل بالمصابيح الكهربائية، ويصيح: (إنتو عايزين تخربوا بيتي؟ النور يطفي الساعة ٦ حتى لو ما خلصتوش واجباتكو، كفاية عليكو نور ربنا!).

ياللسخافة! أهذا هو أبي؟ أهذا هو ما ينتظرني بالخارج؟

ليس بيدي شيء أفعله سوى أن آتي إلى هذا العالم وأسلم أمري إلى الله، ولنرى سويًا ماذا سيحدث.

توالت الأيام، وها قد حانت لحظة اللقاء، لقائي بهذا العالم الخارجي الذي اعتدت سماعه، أخيرًا سوف نتقابل.

ما الذي يحدث؟ الجدران تهتز من حولي وكأن المكان الذي يحويني يقوم بلفظي! صوت صراخ لا أعلم سببه... إنها أمي، ولكن لماذا تصرخ هكذا؟ ألقائي مزعج إلى هذا الحد؟

أصوات كثيرة لنساء كثيرات لا أعلم من هن، التوتر يسود المكان، أصوات الهرج والمرج تعلو، إحداهن تتضرع لله تعالى أن ينجو كلانا مما يحدث.

وأخيرًا وجدت نفسي بين يدي امرأة، صدمني شيء بارد دخل إلى أنفي وتسلل منها إلى رئتي، شعور لم أعتده، جعلني أرتجف خوفًا وأطلق صراخًا، ولم أهدأ إلا عندما ناولتني تلك السيدة إلى أمي، فاحتضنتني وضمّتني إلى صدرها، ونادت إحداهن لأبي قائلة: تعالى يا أبو البنات، جالك النهاردة بنتين يتربوا في عزّك.

صُدمت من الكلمة، فلم يكن معي أحد من تلك الأخرى!

ابتسم أبي ونظر إليّ نظرة تخلو من العاطفة قائلًا: هنسميها منى، هي منى، وأختها التانية إيمان.

كدتُ أجن وأنا أستمع إليهم، فمن هي تلك الأخرى؟ قطع أفكاري صوت طفل صغير دخل مسرعًا إلى الغرفة مناديًا أبي: بابا، ماما عايزاك بسرعة في الشقة التانية.

خرج أبي مسرعًا مع هذا الطفل، وهنا اندفعت إحدى النساء اللائي يملأن الغرفة قائلة: صحيح الدرة مرة، مش هاين عليها تسيبك تفرحي يوم، وتولد معاكي في نفس اليوم كمان!.

لم تنبس أمي ببنت شفة، واكتفت بنظرة حسرة وابتسامة ضعيفة باهتة لم تخلُ من ألم الولادة.

وتدخلت أخرى ممازحة محاولة التخفيف عن أمي: النهاردة كام عشان نعرف هنحتفل بعيد ميلادها امتى كل سنة؟.

أجابتها إحداهن: النهاردة ١٩٥٤/١٠/٢٩.

نعم أيها السادة، أنا أحد مواليد برج العقرب، القاطنين محافظة الإسكندرية...

وانطلقت الزغاريد.

ومن هنا أدركت أن أبي متزوج من اثنتين، وله أطفال آخرون، فلم نكن أنا وإخوتي وأمي وحدنا من نشاركه رحلته، فقد شاركنا آخرون.

توالت الأحداث، وأخذتُ أكبر وأتعلم مهارات جديدة، عرفت أن لي عشرة من الإخوة، لم يكن جميعهم بالأشقاء، كان أربعة منهم كذلك فقط، وكان الستة الباقون إخوتي من أبي.

عرفت أيضًا أن أمي هي الزوجة الثانية لأبي.

نعيش في منزل كبير جميعًا، ولكن تعيش كل زوجة في شقة منفصلة، كان البناء كله ملكًا لأبي، فقد اكتشفت أنه ثري فعلًا على الرغم من بخله الشديد.

كنا إخوة كُثُر، لم يكن أحد يكترث كثيرًا لأمري، فقط آكل وألعب وأنام، ولكن وسط هذا الزحام الشديد والأطفال كنت أريد شيئًا من الاهتمام، المزيد من الاهتمام.

فلم تكن أمي تستطيع أن تولي كل منا وقتًا خاصًا لتهتم به على حدة، فكل ما كان يشغل وقتها هو إعداد الطعام وإنهاء الأعمال المنزلية ومحاولة صدّ هجمات زوجة أبي الشرسة عنها، وتقضي المتبقي من وقتها مع أبي.

لم يتبقَّ لها الوقت لتعطي أيًّا منا أي اهتمام، خاصة وأنها كانت غير ماهرة في المطبخ، حيث كانت تجلس منذ بداية اليوم إلى ما بعد المغرب لإعداد وجبة الغداء.

كنت بطبعي أهوى أن أكون محط الأنظار، ولكن لم يكن من الممكن أن يحدث هذا، خاصة بعد أن وضعت أمي طفلين آخرين بعد مولدي بعدة سنوات، فلم يعد أحد حقًا يراني.

احترتُ كيف ألفتُ الانتباه إليّ، كيف أجعل الجميع يراني؟

وفي خضم الأحداث بدأت أنجذب لتصرفات أبي الذي كان يستمتع بجمع المال، فقد كانت تلك هي هوايته: جمع المال والمحافظة عليه ومحاولة تقليل أوجه الصرف.

راقبته، وجدته إذا طلب أحد منه عشرة قروش أعطاه فقط تسعة، وإذا طلب منه أحد قرشًا أعطاه نصفه.

كنت أسأله دائمًا: يعني هو القرش ده اللي هيفرق يا بابا؟

ليرد قائلًا: قرش على قرش يفرق.

مرةً تلو الأخرى وجدتُ نفسي وقد أعجبني المنطق، وعندما طبقتُ تلك الفكرة (الادخار أسلوب حياة) شعرتُ بلذة غريبة جعلتني أدمنها، فقد أصبحتُ أدخر كل قرش أحصل عليه، وإذا اضطررتُ للصرف كنتُ أصرف ما يتبقى بعد الادخار وليس العكس.

وفي أحد الأيام شاهدتُ أبي وهو يراقبني، ورأيتُ عينه وهي تلمع جراء ما لاحظه مني من تصرفات مشابهة لتصرفاته. شجعني... أصبحتُ فتاته المدللة والأقرب، دون إخوتي جميعًا، إلى قلبه، فلم يكن أيٌّ من إخوتي يحب البخل أو الحرص – كما كنا نزعم أنا وأبي – وكانوا يمطرونني نقدًا وتحذيرًا من أن أصبح مثله وأتحول إلى شخص بخيل حتى في مشاعره، ولكنني كنتُ أرفض، لا أعلم لماذا... هل لأنني أحببت الادخار حقًّا أم لأن الادخار كان هو الوسيلة التي جعلت أبي أخيرًا يراني ويهتم لأمري؟

فقد كان هذا الأمر محط اهتمامي... أريد أن أُرى... أريد أن أكون محط الاهتمام... أعشق أن أكون مصدر الأحداث والمحرك الأول لكل ما يدور حولي بطريقة أو بأخرى. فتارة كنتُ أتعمد إثارة المشاكل والوقائع بين إخوتي، فقد كنتُ أفتعل المشكلة وأنا من يقوم بحلها أيضًا، ولكن دون أن يشعر أحد أنني مصدر الأحداث والمحرك الرئيسي لكل ما يمرون به. كنتُ أفتعل المشكلة وسريعًا ما أبادر بإظهار الحل حتى يلجأ الجميع إليّ.

يا الله، كم أدمنتُ ذلك الشعور! أخيرًا وجدتُ ضالتي، أصبحتُ قبلة إخوتي... تقربتُ من كل واحد منهم على حدة، وتعمدتُ أن أوقع بينهم دون أن يشعر أحد بما أفعل. كنتُ أوسوس لكل منهم بأنه هو المميز، بل الأكثر تميزًا على الإطلاق. كنتُ أُسهب في مدح كل واحد منهم لأمتلكه، وهل يملك المرء إلا من أذنه؟ ولأملك كلًّا منهم كان لزامًا أن أقف على التفاصيل... كل التفاصيل.

أدمنتُ الأسئلة، مهما بدت صغيرة أو تافهة. اهتممتُ بجمع كل التفاصيل من كل من حولي: إخوتي، أصدقائي، وحتى زملائي في المدرسة. وتنامت لديّ شهوة الفضول، أصبتُ بجنون معرفة كل شيء عن كل فرد في حياتي؛ سواء من تجمعني بهم مواقف، أو من قد تجمعني بهم مواقف، أو حتى من قد لا يجمعني بهم سوى يوم "الموقف العظيم". فقط أردت أن أعرف، وأن أعدّ خططي بناءً على تلك المعرفة... أعرف وأخزن وأسترجع تلك المعلومات وقت الحاجة.

وفي تلك الأثناء، وأثناء رحلتي من الطفولة إلى المراهقة، أصبح يتجنبني الكثير من إخوتي، بل وأصدقائي أيضًا. لم يكن يهتم لأمري سوى أختي "إيمان"، نعم هي من وُلدت معي في نفس يوم ميلادي، ولكن كثيرًا ما كانت تمنعها عني أمها، وكانت ترفض قربها مني، وكانت دائمًا ما تصيح بها قائلة: ابعدي عنها، دي ممشياكي جنبها خدامة.

كانت أختي تلك هي الوحيدة التي تهتم لأمري من إخوتي غير الأشقاء، كما كانت "ثناء" أختي الشقيقة تفعل دونًا عن جميع إخوتي الأشقاء أيضًا.

كنتُ دائمًا ما أحاول التقرب لهم جميعًا عن طريق خطتي المعتادة والتي اعتدتُ ممارستها مع الجميع (فرّق تسُد): أن أجلس مع كلٍّ منهم على انفراد، محاولةً معرفة كل ما يجول بخاطره تجاه نفسه وتجاه الآخرين، أدرس نقاط قوته ونقاط ضعفه لأقرر كيف يمكنني السيطرة عليه، وما الاستفادة التي سوف أحصل عليها من وراء ذلك.

لا أنكر أن هذه كانت متعتي الوحيدة في الحياة... أن أعرف وأخطط وأسيطر وأستفيد. يا لها من متعة وأنتِ ترين ضحيتكِ الساذجة تقع في شباك بعض كلمات الإطراء التي تجعلها في يديكِ عجينةً طريةً سهلة التشكيل، تفعلين بها ما تشائين وتستفيدين منها قدر ما تريدين. نعم، إنها فكرة شيطانية، ولكن القانون لا يحمي المغفلين.

كنتُ أمتلك قدرة رهيبة على أن أجعل من أمامي يسكب كل ما بداخله أمامي بمنتهى الصراحة والوضوح، خاصة السذج منهم. أما غير ذلك، فقد كانوا إما يعتزلونني، أو أسمع منهم كلامًا على شاكلة: وانتي مالك؟ بتدخلي في اللي مالكيش فيه ليه؟.

ومرت الأيام وكبرتُ وكبرتْ تلك الصفات معي. أنا الآن في الصف الثالث الثانوي. أُصيبت أمي بالمرض اللعين، وبلغ جبروت أبي أن رفض علاجها، وظل يشاهدها والمرض يأكل جسدها الضعيف

الواهن حتى أتاها أمر ربها ورحمها من معاناتها مع المرض، ومع أبي الذي لم يكن أرفقَ بها من المرض، فقد اجتمع الاثنان عليها حتى قضيا عليها.

لا أعتقد أنني رأيت أبي حزينًا على أمي كما توقعت، خاصةً أنه كان يزعم أنها أقرب إليه من زوجته الأخرى، ولكن لم يكن ليظهر ذلك. ربما أسِف على فراقها دقائق معدودة، ولكنه سرعان ما عاد لممارسة حياته الطبيعية، وعاد لجبروته المعهود.

وصلتُ إلى المرحلة الجامعية. أنا الآن طالبة في الجامعة. لم أحصل على مجموع يؤهلني لدخول جامعة في الإسكندرية، واضطررتُ للسفر إلى محافظة أخرى. أكسبتني الغربةُ طباعًا جديدة ليست غريبة عليّ، ولكنها أثقلتها. اكتسبتُ من القسوة قدرًا لا بأس به، جعلني – في نظر نفسي – شخصًا كاملًا، لا أتعاطف مع أحد، وعلى استعداد تام لفعل أي شيء من أجل مصلحتي.

أثناء مسيرتي الجامعية كنتُ أمارس هواياتي من لفت الانتباه بشتى الطرق – حتى وإن وصلت حدّ التوقيع بين الناس لأكون أنا الطرف المميز لدى الجميع – وفرض السيطرة على كل من حولي حتى أصبح صانعة الأحداث والمحرك الأول لها. فكم كنت أعشق أن تبدأ عندي الأمور وتنتهي عندي أيضًا.

في البداية أُظهر ودًّا شديدًا للشخص الماثل أمامي حتى يبادلني الود، ومن ثم أمطره أسئلة، وما إن يجيب حتى أبدأ بفرض سيطرتي عليه وأبدأ بممارسة هوايتي. ما هذه النشوة التي تجتاحني عندما أفعل

هذا؟ ما السر وراء تلك اللذة التي أشعر بها؟ حقًّا لا أدري... لعله تعويض عن الإهمال الذي تعرضتُ له في طفولتي المزدحمة بالأطفال، هذا الازدحام الذي شاركني منذ يوم ميلادي.

تبا لهذا الزحام! لكني الآن محط الأنظار، على الأقل في محيطي، وإن كان قليلًا، فقد كان يهرب مني الغالبية، ولكنني وجدتُ من هم أضعف مني في الشخصية، وأصبحتُ أستمد قوتي من ضعفهم، خاصة عندما لمستُ فيهم أن خطتي بأن أجعلهم دائمَي الحاجة إليّ وإلى آرائي قد بدأت تنجح، وها هنّ يستشيرنني في كل كبيرة وصغيرة في حياتهن.

توالت السنوات وخُطبت معظم بنات الدفعة، سواء من بعض زملائنا أو ممن هم أكبر، وهناك من خُطبن لبعض أقاربهن. ولكن... لماذا يُحجم الجميع عن الارتباط بي؟ لماذا لا يراني أحد؟ اللعنة على هذا الإهمال! ماذا أفعل لجذب المزيد من الانتباه؟ نعم... لقد وجدتها: نوبة غضب واعتزال للجميع. سأعلن غضبي على أي شيء واعتزلهم وأتابع النتيجة.

في اليوم التالي كنا على موعد للقيام برحلة إلى مدينة الأقصر. توجهنا جميعًا لمحطة القطار، وكنتُ أنا الوحيدة المتجهمة وسط زملائي، وكلما كان يسألني أحد عن السبب، أكتفي بهمهمة خافتة وأدير وجهي تعبيرًا عن استيائي من شيء مجهول لا يعرفه ولا يفهمه أحد.

وبعدها قمتُ بتنفيذ خطتي، فقد افتعلتُ مشكلة ما مع إحدى زميلاتي، وطال غضبي ولفتُّ انتباه الجميع الذين عاودوا سؤالي مرة

أخرى عن سبب غضبي، ولكن لم يحصل أحد مني على رد جديد. أعجبتني الخطة، خاصةً وقد بدأ يحدث ما أريد، وأصبحتُ مركز اهتمام الجميع.

ولكن سرعان ما تلاشى كل هذا، فما لبثنا أن وصلنا إلى مدينة الأقصر حتى تناساني وتجاهلني الجميع، واتجهوا جميعًا للاستمتاع بوقتهم، ووجدتُ نفسي أسير بمفردي. حتى صديقتاي المقربتان ذهبن للاستمتاع بوقتهن وتركتاني.

فقررتُ معاقبتهن... ذهبتُ وأقحمتُ نفسي بين زملائي وحاولتُ الاستمتاع بوقتي، ولكنني تجاهلتهن تمامًا، وكلما قمن بمخاطبتي تجاهلتهن وأدرت وجهي. نعم، إنه الصمت العقابي... كم أهواه، وقد اتخذته منهجًا للعقاب.

تعاقبت الأعوام واحد تلو الآخر، وأنا أعيش شبه وحيدة، يعزف عني الجميع، وقد أبدوا استياءهم من طباعي. أفرض نفسي عليهم أحيانًا، وعندما ينتابني الملل أتجاذب أطراف الحديث معهم، وقد حاولت تجنيب كل طباعي التي يبغضونها أحيانًا، إلا أنني لم أستطع السيطرة على نفسي في أغلب الأوقات، فقد كنت لا أستطيع مقاومة شعور الفضول والسيطرة بداخلي.

لم أكتفِ بتلك الصفات فقط، بل بدأ يتنامى لدي شعور بحب امتلاك كل ما هو في يد غيري، ولكن دون أن أدفع لشرائه. كنت أشعر بانتصار كبير عندما أحصل على أي شيء من أي أحد عنوة، حتى بعد أن واجهني أحد زملائي قائلًا: ما أخذ بسيف الحياء فهو باطل،

إلا أنني لم أستطع المقاومة. أعلم أنها جينات والدي اللعينة تلك ما زالت تستشري بداخلي، ولكن ما من سبيل.

كنت دائمة المقارنة بين ما لدي وما لدى غيري، وعلى الرغم من كوني ابنة رجل ثري، إلا أنني لم أكن أشعر بذلك على الإطلاق، بل كنت دائمًا ما أشعر بضآلة وقلة. كنت أحاول التشويش على ذلك الإحساس بالكلام، كمن يسوق لنفسه، فمثلاً كنت دائمًا ما أتحدث عن ثروة أبي – والتي لا يظهر أثرها عليّ – دائمة التحدث عن أن المال هو آخر ما يشغلني، كما كنت دائمة الكلام عن مدى بغضي للكذب والمراوغة في الكلام. ببساطة، كنت أدعي كل الصفات الحميدة التي تمنيت أن أكون عليها، ولكنني لم أكن أدري لماذا كنت أشعر بالفخر عندما أمارس سلوكيات كلها عكس ما أدعي. فقد كنت أعتقد أن الكذب والمراوغة في الحديث مهارة، وأخذ ما هو ليس من حقي شطارة.

فأصبحت هذه هي حياتي، وهذا هو نهجي: أن أفعل أي شيء في مقابل أن أشعر بالسعادة والانتشاء، بغض النظر عن مدى عدم نبل ما أقوم به. فحياتي الآن تنحصر على أن أعرف، أن أسيطر واستحوذ، وأن أحصل على ما أريد، وبأي وسيلة.

تخرجت من الجامعة، ورجعت إلى بلدتي وأنا أشعر بالقوة، فأنا الوحيدة من إخوتي الإناث التي حصلت على شهادة جامعية. ومرت أيام وشهور، وتزوج من هم في سني، ولكن النصيب لم يطرق بابي بعد، وجلست أنتظر. جاءني جواب تعييني في جهة حكومية، قبلت

الوظيفة، ونزلت إلى ميدان العمل محاولة تمضية الوقت إلى أن أحصل على ذلك الشاب المرغوب، والذي تتحقق فيه جميع شروطي، يساعدني على تأسيس إمبراطورية أحلامي.

كم مللت ذلك الزحام الذي يملأ البيت، زحام في كل مكان. وبعد أربع سنوات جاء إلى والدي أحد معارفه يزف إليه خبر وجود شاب يريد الزواج مني. رحب والدي بالفكرة، ولكنه انتظر حتى يعرض الأمر عليّ. شعرت بسعادة غامرة، فأخيرًا سوف أكون إمبراطورية صغيرة، أكون أنا الآمرة الناهية فيها، أسيطر على كل أفرادها، أبث فيهم أفكاري وما يروق لي فقط... أكون أنا عينهم التي يرون بها، وأذنهم التي يسمعون بها، ولسانهم الذي ينطقون به.

شعر أبي بموافقتي، فذهب بالرد إلى صديقه وأخبره بالموافقة المبدئية، ولكن كان عليه أن يرى ذلك الشاب أولًا، ويطمئن له ويتأكد أنه غير طامع في ثروته، وأنه جاء للزواج مني فحسب، وأنه قادر على أن يكون صهرا لأبي وقادرا على تحمل مصاريف الزواج. فهذا هو الأهم من وجهة نظر أبي: المال أولًا... وأخيرًا أيضًا.

أما أنا، فكنت أزن الأمور بميزان آخر، فقد كان كل ما أتمناه هو أن يكون قابلًا لإعادة التشكيل، سهل الانقياد والسيطرة، حتى أحكم قبضتي وأبدأ في تنفيذ حلم حياتي.

ذهب صديق أبي إلى ذلك الشاب، وقام بتحديد موعد معه للقاء أبي، واندَهش حين وجده يريد الميعاد في أقرب وقت، سعيدًا بخبر الموافقة المبدئية التي أبديتها. وفعلاً حددوا يومًا، وعندما جاء هذا

اليوم، كنت متحمسة جدًا لمعرفة نتيجة ما يحدث بين والدي وهذا الشاب، وجلست أنتظر عودة أبي بفارغ الصبر.

ولكن أصابتني الصدمة عندما عاد أبي، وعلى وجهه تبدو خيبة الأمل. فجلست أنتظر، لا أريد الإفصاح عما يعتمل بداخلي من انفعال حتى يبدأ هو الحديث. فدخل إلى شقتنا، ودلف إلى غرفة المعيشة، ونادى عليّ بصوته الهادر: منى تعالي.

نعم يا بابا.

جلست أمامه، والفضول يكاد يقتلني، وأنا أظهر عكس ذلك. استرخى في مقعده مردفًا بتعالي فهمت ما وراءه:

_ ده ما ينفعش بصاغ.

تمتمت في خفوت:

_ ليه يا بابا، إيه اللي حصل؟

أردف قائلًا: البيه ظروفه على قده وما حيلتوش، لسه متعين مدرس موسيقى بـ١٦ جنيه في الشهر، لا حيلته شقة ولا أهله معاهم حاجة يساعدوه بيها، يعني بالمختصر المفيد جاي طمعان.

أسرعت قائلة: الفقر مش عيب...

اندفع قائلًا: اللي ما معهوش ما يلزموش، ده هيجوعك، ولا هو جاي عارف هو هيناسب مين، وفاكر إني هههشيل الشيلة ولا هصرف عليكم؟ مرفوض ومش عايز أتكلم في الموضوع ده تاني.

هم أبي بالانصراف معتقدًا أن الأمر انتهى عند هذا الحد، ولكنه تفاجأ عندما وجدني أرفع صوتي بلهفة متحدية لم أتمكن من إخفائها:

_ بس أنا عايزة أشوفه... مش حرفض عشان أسبابك دي، أنا ليا شروط في الراجل اللي هتجوزه، وممكن الاقيها فيه، وساعتها هوافق، حتى لو كانت ظروفه صعبة. أنا اللي هتجوز، وأنا اللي هعيش.

تأملني أبي في صمت غاضب، وإن نمَّت قسمات وجهه عما يجول بخاطره من انفعال، ولكنني وجدته يقول:

_ ماشي، هخليه ييجي البيت علشان تشوفيه، بس أنا بقولك من دلوقتي دي جوازة فاشلة.

أومأت مبتسمة بالموافقة، وذهبت لكي أستعد لهذا اللقاء، فلعله يكون اللقاء الذي يمنحني السعادة الأبدية، ولعله هو الزوج المأمول.

تواصل أبي مع الشاب عن طريق صديقه كالعادة، ولم يخفِ عليه حقيقة مشاعره تجاهه، بل تعمد أن يوصل إليه أنه غير موافق على تلك الزيجة، بل وأوصل إليه أيضًا بصورة جارحة أنه فهم قصده من وراء ذلك الزواج، وأنه الطمع في ثروة أبي، واتهمه بأنه شاب وصولي متسلق يريد الوصول على حساب الآخرين. فلم يكن أبي من ذلك النوع المجامل الذي يجمل الكلام، بل كان يلقي بالكلمات في وجه محدثه غير عابئ بأثرها عليه، ولكنه أوضح له أن لي وجهة نظر

أخرى في الزواج، وهو قبلها كأب ديمقراطي لا يرغم بناته على شيء، ولعلها الحسنة الوحيدة في أبي، فقد كان لا يتدخل مطلقًا في زواج بناته، تاركًا لهن حرية الاختيار طالما أن العريس غير طامع فيما لديه من مال، وطالما أن كل واحدة منهن سوف تتحمل نتيجة اختيارها للنهاية.

وبالفعل، تم تحديد موعد، وذهبت أنا ووالدي لكي نقيم هذا الشاب ونرى إن كان هو من سيحقق لي حلمي أم لا.

كان الموعد في أحد الكافيتريات المنتشرة في فترة أواخر السبعينات، وإن كانت تأخذ طابع المقهى البلدي في بلدتنا. دلفت أنا ووالدي إلى المكان، ومسحت المكان بنظري حتى لمحت صديق والدي يجلس إلى جوار شاب على أحد الطاولات. تقدم والدي وجلس على الطاولة، يبدو عليه عدم الرضا عما يحدث، ثم أشار إلي بالجلوس. فجلست وبدأت أدرس ذلك الشاب الذي هب واقفًا بمجرد أن رآنا ندلف إلى المكان، وتهللت أساريره، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يراني فيها. نعم، لم يرني مسبقًا، ولم يكن يعلم أنني على قدر من الجمال. رأيت الإعجاب بادٍ في عينيه، ولم أعطه اهتمامًا، أعتقد أن الفصرة جاءتني لكي أشعر بأنني مرغوبة، وأتجاهل من يرغب بي. كم هو ممتع هذا الشعور!

رمقته بنظرة جانبية، وتركته يلقي السلامات الحارة والترحيبات بي وبوالدي، وجلست اختلس النظر إليه وأتفحصه دون أن أشعره

بأدنى قدر من الاهتمام، على العكس حرصت على أن أظهر له شيئًا من التكبر وعدم المبالاة.

تفحّصته خِفية، وجدته طويل القامة ممشوقًا، لا يتمتّع بأيّ قدر من الوسامة، يفغر فاهه عن ابتسامة غير ذات معنى تجعلك تشكّ للوهلة الأولى في سلامة قواه العقلية. ولكن ما جذبني إليه حقًا هي نظرة الإعجاب تلك التي تطلّ من عينيه، والتي أكاد أجزم أنها وصلت إلى حدّ الانبهار، مع كل هذا التعالي وعدم المبالاة الذي بادلته به. وبدأ يتحدث موجّهًا الحديث إلى أبي: أنا عارف إن ظروفي على قدّي وإن حضرتك من أغنى الأغنياء في بلدنا، بس أنا مش عايز حاجة من حضرتك غير المتعارف عليه من عادات وتقاليد، وأنا هتحمّل كل ما عليّ من متطلبات الجواز: شقّة وشبكة وفرش للبيت زي عاداتنا في بلدنا ما بتقول، وأوعد حضرتك إني هكون قدّها إن شاء الله.

رمقه أبي بنظرة ناريّة تنمّ عن عدم ارتياحه للأمر برمّته، إلا أنه تابع الحديث قائلًا: ادّيني فرصة بس، وأنا هثبتلك إني أستحق أكون جوز بنتك.

كنت أتابع الحديث في صمت، فقد كنت أزن الشخصية بميزاني الخاص... هل سأتمكّن من السيطرة؟ هل سيدع لي المجال للقيادة وتولّي زمام الأمور؟

هزّ والدي رأسه في امتعاض قائلًا: أنا ما اتعودتش أُغصب واحدة من بناتي على الجواز من شخص بعينه أو رفضه... هي صاحبة القرار.

وأدار وجهه. همّ العريس المزعوم – والذي كان يُدعى بالمناسبة أمير – بقول شيء، ولكن قاطعه حضور النادل يسألنا عن طلباتنا، فتوجّه أمير بالحديث إليّ قائلًا: تحبّي تشربي إيه؟

أجبت وأنا أنظر إليه بطرف عيني: عصير مانجا – وكان هذا مقصودًا، فقد كان هذا الطلب هو الأغلى في قائمة المشروبات في ذلك الحين – وكان هذا جزءًا من اختباري له.

فردّ عليّ بابتسامته البلهاء مشيرًا للنادل: هاتلها العصير وشوف البهوات يشربوا إيه.

طلب كلٌّ منّا طلبه وذهب النادل. تجاذب والدي وصديقه أطراف الحديث، وكان والدي يتعمّد تجاهل أمير، الذي لم يكن يُعير لتجاهل والدي أدنى اهتمام، فقد كنت أُلمحه بطرف عيني وهو يتفرّس بي مُعجبًا بغطرستي أشدّ الإعجاب، وهو ما كان يُشعل بداخلي شعورًا رائعًا لتعويض ذلك النقص الذي لازمني من لحظة مولدي. وجاء النادل وهمّ بوضع الطلبات أمامنا، فأسرع أمير ومدّ يده والتقط منه كوبي وأعطاه إليّ: اتفضّلي

منحته نصف ابتسامة وتناولت منه الكوب، وقد أصبح الغرور يتملّكني، قائلة: شكرًا.

أكاد أجزم أن عينَيه اشتعلتا في تلك اللحظة من فرط الإعجاب بي، وهنا تيقّنت أنه هو الشخص المطلوب، فماذا أريد أكثر من ذلك؟

شخص أمنع عنه فيمنحني، أتدلّل عليه فيستجديني، مجرّد نصف ابتسامة مني تجعله يطوي الأرض طيًّا من أجلي.

شخص أمنّ عليه برضائي، أوجّهه كيفما أريد، وأُكافئه وقتما أشاء، وأُعاقبه أشدّ العقاب إن أخطأ أو حاول فرض رأيه أو سيطرته عليّ... إذن فهو المنشود.

انتهى اللقاء وعدنا إلى منزلنا، وجلس معي والدي وبادرني قائلًا: أنا شايف إنك ميّالة للجوازة دي ولا أنا غلطان؟

فأجبت بهدوء: أيوة، أنا درسته دراسة مبدئية، وأقدر أقولّك إني موافقة... بس بشروط.

ارتفع حاجبا أبي في دهشة: انتي لحقتي تدرسي وكمان تحطي شروط؟

ابتسمت بثقة: أيوة... وشروط مش سهلة كمان. أنا لِسّه بعمله اختبار.

أولًا: حضرتك هتطلب منه شبكة غالية جدًّا ومهر كبير.

ثانيًا: أنا عايزة قبل ما أقول إني موافقة أشوف والدته ووالده وإخواته.

نظر إليّ أبي في إعجاب ذو مغزى، وقد فهم ما يجول بخاطري: ماشي... هاقوله على شروطِك دي ونشوف.

ابتسمت في خبث وتوجّهت لغرفتي وأنا أعدّ الاختبار التالي... ولكن هذه المرة لم يكن لأمير، بل لأهله... كلّ على حدة... واتّسعت ابتسامتي أكثر.

كنت أستعدّ للقاء أسرة ذلك العريس المزعوم، عندما وجدت أبي يدلف إلى غرفتي وهو يقول: أمير موافق على إنك تقابلي أهله، وحدّدوا ميعاد يوم الخميس الجاي.

وافقته بإيماءة من رأسي وابتسامة سريعة، ففهم أنني أفكّر بأمر ما، وتركَني بصحبة أفكاري وغادر غرفتي.

في صباح يوم الخميس المنشود جلست أولي نفسي كل الاهتمام، لكي أظهر أمام أهل أمير في أفضل حال. ولكن لم يكن المقصود هنا أن يشاهدوا كيف اختار ابنهم فتاة جميلة، أو لينبهروا بجمالي فيُثنوا على اختيار ابنهم، بل كان هناك غرض آخر أسرّه في نفسي.

جهّزت أفضل ثيابي وحرصت أن يكون ثوبًا جديدًا لافتًا يبدو عليه الغلاء – وإن لم يكن هذا من طبعي – أضفت إلى وجهي بعض مساحيق التجميل التي أبرَزت جمال ملامحي أكثر، وصفّفت شعري بعناية فائقة. في النهاية كان مظهري العام يدلّ على أنني ابنة رجل ثري حقًا.

وفي المساء توجّهت أنا وأبي إلى منزل أمير، الذي وجدناه يقف على بوابته في انتظارنا، تعلو وجهه نفس الابتسامة – الثقيلة على قلبي، ولكن يمكنني تجاهلها.

رحّب بنا واصطحبنا إلى داخل المنزل، ووجدناه متّجهًا إلى شقّة صغيرة جدًّا. أخرج مفتاحًا من جيبه ودسّه في الباب ليفتحه، وتقدّمنا حتى يُعلن لأهله عن قدومنا.

للّوهلة الأولى شعرت بسعادة بالغة، خاصة عندما دخلنا المنزل فوجدناه منزلًا شديد البساطة يتكوّن من غرفة واحدة وصالة، مما منحني شعورًا بالتميّز. ووجدتني أتعالى أكثر وأكثر على أمير، الذي كان ينتشي كلما رأى غروري وغطرستي.

كان أول وجه قابلته داخل منزل أمير هو وجه والدته. سيدة مسنّة تبدو الطيبة على ملامحها. رحّبت بنا وأجلستنا في الصالة.

رحت أدور بعيني في المنزل جيئة وذهابًا دون أدنى خجل، وكأنني استبحتُ المنزل لمجرّد أنه بسيط، معلنة للجميع ذلك.

كان المنزل بسيطًا جدًّا، لكنه كان على قدر عالٍ جدًّا من النظافة، مما يدلّ على أن صاحبته سيدة مهووسة بالنظافة.

أثناء تجوّلي بنظري في المنزل مظهرةً شيئًا من العجرفة، التقت عيني بعين أمّ أمير، والتي لمحتُ فيها شيئًا من التوجّس وعدم الاطمئنان لي.

تبادلنا عبارات الترحاب المعهودة في مثل تلك المواقف، وبادرت أمّ أمير بالكلام معي بلهجة مرحّبة لا تخلو من الحذر: أهلًا وسهلًا يا حبيبتي، نورتينا... ما شاء الله زيّ القمر.

بادلتها ابتسامتها الحذِرة بأخرى مشابهة: أهلًا بحضرتك... شكرًا.

وفي تلك الأثناء وجدنا باب المنزل يُفتح، كأن هناك قادمًا جديدًا سينضمّ إلينا، وكان بالفعل والد أمير؛ رجلًا طويلًا عريض المنكبين.

وهنا أدركت أن أمير يرث تلك البنية من والده.

وجهه بشوش، سلّم علينا واعتذر بلطف لأنه تأخّر في عمله، وهو أمر خارج عن سيطرته.

تجاذب أطراف الحديث مع أبي، واندَمج كلاهما وأمير في مجموعة من الأحاديث الجانبية في موضوعات شتّى كأحوال البلاد وسياسة الانفتاح، وما إلى ذلك من أحاديث كانت تشغل الرأي العام في تلك الفترة.

فيما انخرطتُ أنا ووالدة أمير في حديث آخر، بدأتْه هي: أهلًا وسهلًا... البيت زاد نور يا عروسة.

فتمتمتُ: البيت منوّر بأصحابه.

رافقت كلماتي ابتسامة خجل مدروسة، وأطرقت برأسي إلى الأرض وقد اكتسى وجهي بحمرة. إنتي شايفة إن ابني عريس مناسب ليكي؟ يعني عرفتي ظروفه كلها وموافقة عليها؟

إحنا يا بنتي ناس على قدّ حالنا، مستورين الحمد لله، ومش ناقصنا حاجة، بس أكيد مش في نفس مستوى والدِك المادي.

هل هتقدري تتعاملي مع الوضع ده؟

أنا ابني زي ما إنتي عارفة مجرد مدرس بمرتب بسيط، وحتى المادة اللي بيدرّسها مش ممكن هيكون ليها دروس خصوصية. بصراحة... أنا خايفة على ابني... إنتي هتتعبيه علشان ينفّذ لك طلباتِك... وانتي مش واخدة على المعيشة الصعبة.

شعرت برجفة تعتريني، وتألقَت عيناي ببريق عجيب عجزتْ هي عن تفسيره، أمّا أنا فقد نلت ما كنت أنشده.

نعم... فهذا هو بالضبط ما أردته.

رجل ضعيف الشخصية، أقل من والدي مالًا بكثير، أشعرُ بتفوّقي الدائم عليه، وأعوّض ما بداخلي من نقص.

شخص كهذا سيفنى عمره في محاولة إرضائي... سأتملّكه هو وأبناءنا.

أخيرًا... الحلم يقترب، وها أنا ذا على أعتاب تحقيقه... مملكتي الصغيرة التي أبتغيها.

أفقت من شرودي على سؤالها المتوسّل: صح؟ ولا إنتي إيه رأيك يا بنتي؟

منحتها ابتسامة لطيفة أخفت وراءها الكثير، وغمغمت في خفوت متصنّعة البراءة: أنا والدتي اتوفت وأنا في سنّ صغير... وبخبرتي الصغيرة نوعًا ما، لما اتكلمت مع أمير حسّيت منه إنكم عيلة مترابطة ما شاء الله... وتربية أمير واضحة... وحضرتِك باين عليكي الطيبة... وأنا محتاجة أمّ تقبلني أكون بنتِها... وأرجع أحسّ تاني إن بيتنا ليه سقف يدفّيني.

تهلّلت أساريرها عندما سمعت كلماتي، التي لم تكن تحمل أيّ معنى آخر سوى بحثي عن الأمان... ولكن أيّ نوع من الأمان؟

فللأمان عندي مفهوم مختلف...

قالت وقد بلغ حماسها وسعادتها مبلغهما: ده إنتي هتبقي بنتي زي فريدة... وأكتر... أنا هشيلك جوا عيني يا حبيبتي.

أنهَتْ جملتها تلك، وهبَّت مسرعةً إلى المطبخ، وخرجت منه وهي تحمل أصنافًا من الحلوى والفاكهة لا تتناسب مع مظهر البيت البسيط، فلم يكن يقدر على شراء كل تلك الأصناف إلا فئة معيّنة في ذلك الوقت، حتى أبي – وهو مَن هو مالًا – لم يكن ليسمح بتداول تلك الأصناف دفعةً واحدة إلى منزلنا ولا حتى على دفعات، فقد كان شعاره: (نفسك في حاجة اشتغل وهاتها بفلوسك). ولكن على أية حال فمن المحتمل أن يكون كل هذا من أجل قدومنا حتى يثبتوا لوالدي أنهم كُفء لنَسبه...

أثارت اندهاشي، والتي أعتقد أنني فشلت في إخفائها، حنقُ أم أمير، فقالت: أبو أمير ما بيحبّش يحرِم أولاده من حاجة حتى وهم في السن ده، كل فلوسه رايحة عليهم، أيوة هم بيشتغلوا بس هو بيقول طول ما أنا عايش هيفضلوا بالنسبة لي أولادي الصغيرين اللي بفرح لما بدخل عليهم باللي نفسهم فيه حتى لو كانوا مليونيرات.

زادت دهشتي ولم أستطع إخفاءها حقًا، على الرغم من هذا الجهد الخرافي الذي قمت به... هل هذا معقول؟! أيوجد أب يقول هذا حقًا؟! ولكن كيف؟! والرجل يبدو عليه ضعف الحال ماديًا، ووالدي صاحب المال الطائل يتعامل معنا كما لو كنا ضيوفًا ثقالًا يعدّ الدقائق والثواني ليتخلّص منا واحدة تلو الأخرى، وواحدًا بعد الآخر، سواء بالزواج أو بإلحاق أيٍّ منا بعمل ليكفّ يده عنه ويتكفّل كلٌّ منا

بنفسه... لا أنكر أنه إذا تزوجتْ واحدة منا يأتي لها بأغلى أثاث، ولكنني أتحدث عن المصاريف الحياتية اليومية...

للمرة الثانية أفقت من شرودي على صوت أم أمير وهي تبسط يدها لي بطبقٍ به ما لذّ وطاب من حلوى: (اتفضّلي يا عروسة).

تناولتُ منها الطبق على استحياء، ولكنني وجدتني آكل بمنتهى الأريحية.

قامت هي وناولَت والدي وزوجها وابنها أطباقًا مشابهة لطبقي، وكانت تقوم على ضيافتنا بصدرٍ رحب وكرمٍ ملحوظ وغير مصطنع. كان كل تصرّف يصدر منها يثير دهشتي، فكيف لعائلة بسيطة كهذه أن تعيش في هذا الرغد الواضح من أحاديثهم العامة؟! وكيف لوالدي أن يجبرنا على العيش على حدّ الكفاف هكذا؟! كنت أتساءل وأتعجب، ولكن لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أُصدم فيها من تصرفات والدي...

مرّت الزيارة وهممنا بالانصراف، تبادلنا عبارات السلام والتهنئة على الموافقة على إتمام الزواج، وتم تحديد موعد مناسب لإقامة حفل خطوبة مع حصولي على وعد بشراء شبكة غالية تليق بي وبوالدي الذي لم يكن يعلم حقيقته حتى الآن سوى أنا وإخوتي...

تم حفل الخطوبة على أكمل وجه، فقد أوفى أمير بوعده وقدّم لي شبكة غالية حقًا، مما أثبت لي أن الأمر يسير وفق خطّتي، وأن أميرًا شخصيًا أصبح تحت سيطرتي، خاصة بعد أن أحكمتُ إسدال شباكي حوله وأصبح ينفّذ كل رغباتي، حيث طلبتُ من والدي أن

يُضلعَه في مهر ليس بقليل بحجة أن يثبت لوالدي أنه كفء لنيل الزواج مني فقط لذاتي وليس طمعًا بثروته. وكان لتلك الجملة وقع السحر على أمير، الذي ما كان يسمعها حتى يلهث لتنفيذ جميع ما أرغب دون تفكير ودون أن أبذل مجهودًا يُذكر، سوى تلك السعرات الحرارية البسيطة التي تُحرَق في سبيل نطق كلمات جملتي...

مرّت الأيام وأتى الوقت لاستلام عش الزوجية، والذي كان عبارة عن شقة بسيطة مكوّنة من غرفة واحدة وصالة، وبالطبع لم تكن ملكًا لأمير، بل استأجرها لحين توافر المال الكافي لشراء واحدة...

وافق أبي على مضض، حيث إنه كان يرى مدى تمسّكي بإتمام تلك الزيجة، ولأنه كان يثق بتفكيري ويعلم جيدًا أنه طالما أنا متمسكة بها لهذا الحد فإنه بالطبع توجد لي مصلحة فيها ومآرب كثيرة.

أتممنا جميع التجهيزات واشترينا كل ما يلزم لجعل هذا العش صالحًا ليجمع زوجين، وقام أبي بشراء جميع أثاث المنزل مع وعدٍ منه بإحضار أثاث الغرفة الثانية حين شراء شقة أكبر. سعدت كثيرًا لوعد أبي، وتمّ كل شيء على ما يرام... ولكن قبل موعد زفافنا بأيام تلقّينا خبرًا مفجعًا، وهو فقدان أخي غير الشقيق والذي كان قد قرر الهجرة فرارًا من جبروت وشحّ أبي...

تبًا لتلك الزوجة، زوجة أبي، التي رافقني اضطهادها منذ لحظاتي الأولى في تلك الحياة. لم أعبأ بالخبر وانهمكت في استكمال مراسم حفل زفافي، فقط اكتفيت باقتطاع بضع ساعات من وقتي للمشاركة في حضور مراسم تشييعه، ولم أراعِ مشاعر زوجة أبي المكلومة ولا

مشاعر أبي – غير الموجودة أصلًا – وبالفعل تم الاتفاق على إتمام حفل الزفاف في موعده، ولكن بدون إقامة احتفال كبير، فقط اقتصر الأمر على إقامة حفل عشاء صغير يجمع أسرتي وأسرة أمير، وقد تبرع أحد الأصدقاء بتصوير الحفل بكاميرا الفوتوغرافيا خاصته...

اللعنة على ذلك، حتى حفل الزفاف الذي تحلم به كل فتاة تعمّدت تلك اللعينة وأبناؤها إتلافه... شعرت بحنق شديد يجتاحني كعاصفةٍ تلهو بزورق صغير في قلب المحيط، ولكنني تمالكت نفسي وسيطرت على مشاعري، فلديّ هدف أسمى أنا على وشك تحقيقه...

تم الزفاف حسب الاتفاق، وتوالت الأيام واحدًا تلو الآخر، واقتربت أكثر من أمير، وكان كل تركيزي منصبًّا على دراسة شخصيته: عيوبه، مزاياه، نقاط ضعفه وقوته... مرّت شهور ووجدت أميرًا وقد بدأت تبدر منه مواقف لا تُبشّر بالخير إطلاقًا، فقد أصبح يُهمل في إحضار أبسط أساسيات البيت من مأكل وملبس لي وله، حتى في المناسبات كالأعياد، على الرغم من أنه كان يعمل بوظيفتين؛ فمع وظيفته الأساسية كمعلم موسيقى، اقترح عليه أحد الأصدقاء أن يعمل كبائع بمتجر، كان راتبه الذي يتقاضاه بالإضافة إلى راتبه كمعلم يضمن لنا العيش برخاء، خاصة وأننا لم نرزق بأطفال بعد. ولكنه كان كثيرًا ما يتجاهل أبسط احتياجاتي واحتياجات المنزل الأساسية، حتى مع قيامي بعمل قائمة لأبسط متطلبات المنزل كان يتجاهل وجودها

ويتركها ممددة على الطاولة بالأيام، حتى يفرغ المنزل تمامًا من أي مؤن، واضطر أنا إلى شراء ما يلزم من مالي الخاص. وعندما كنت أواجهه لم أكن أجد سوى تلك الابتسامة البلهاء ملحقة بأعذار واهية، أقبح من ذنب التنصّل من المسؤولية إذا أردنا إصابة كبد الحقيقة.

وجدت نفسي متزوجة وأعول زوجي غير العاجز بالمرة، سوى عن إدراك كونه رجلًا عليه واجبات... كانت صدمتي في وضاعة أمير أكبر من أي صدمة مرّت علي في حياتي، حتى أكبر من صدمة فقد أمي، ومن هنا تولّد لدي شعور غامر بالغضب أعمى عقلي عن التفكير سوى بالانتقام... فقط الانتقام!

ليس الانتقام من الرجال، لا، بل ذهب انتقامي لأي امرأة أستشعر بها السعادة أو الاستقرار... نعم نقمتُ على نساء الأرض، بغضتهن جميعًا، القريبات منهن قبل الغريبات، الصغيرات والكبيرات. وجدت نفسي أحقد على طفلة صغيرة رأيت والدها وهو يضع بعض قطع الحلوى في فمها، شردت في ذلك المشهد حتى تخيلت أنني أجذب تلك الحلوى من الصغيرة وأتناولها أمام عينيها وأُصاب بهستيريا ضحك وأنا أستمتع بمشاهدة دموعها وهي تبكي بحرقة على ما سُرق من فمها...

ولكن ماذا الآن؟ هل سأترك أمير ينجو بفعْلته عديمة الشرف تلك؟! هو لم يُصارحني من البداية بأنه من هؤلاء عديمي الرجولة، ممن يستبيحون أموال زوجاتهم، بل وبمطالبتهم أحيانًا بتحمل مصاريف

الحياة بدون سبب واضح... نعم، طلبها مني بكل تبجح وهو يشيح بوجهه عني: لو لقيتي حاجة ناقصة في البيت ابقي هاتيها، إنتي بتشتغلي ومعاكي فلوس.

نظرتُ إليه مستنكرة: والبيه لازمته إيه في الدنيا لما أصرف أنا على البيت؟! ما أنا وإنتَ بنشتغل ولسّه مخلفناش... إنت بتودي فلوسك فين؟!.

غمغم وهو يبحث عن شيء غير موجود فقط ليبقي عينيه بعيدًا عن مواجهتي: (بَحَوَّش علشان المستقبل، وإنتي شاطرة في شغلك واترقّيتي، وأنا زي ما أنا... حنعمل إيه؟ دي أرزاق موزّعها ربنا). واتجه مسرع الخطى نحو باب الشقة وفتحه وخرج، وكأنه يهرب من ملاحقة كلب شرس... تاركًا إياي مذهولة مما سمعت. ولكن عقلي سرعان ما أجرى حساباته، ووسوس لي شيطاني بفكرة جعلت عيناي تلمعان ببريق شيطاني مخيف...

فقد أهداني أمير أول الخيط لتنفيذ خطتي حين جعلني أصرف من حرّ مالي على المنزل، فبالتبعية سوف تكون الكلمة الأولى والأخيرة لي، وليس عليه هو سوى تلقّي المال وتحمل ما سأفعله، بل والتصديق عليه...

اعتدتُ على النمط الجديد للحياة، فأصبحتُ أنا الرجل وأمير المرأة، أنا من تعول، وأمير هو العالة بكل ما تحمل الكلمة من معنى. أصبح حقدي على نساء العالم يكبر أكثر فأكثر، أصبحت أفتعل المشكلات وأتعمد بثّ الوقائع والدسائس بين زميلاتي في العمل وأزواجهن،

وأصبحت أكثر احترافية في هذا الأمر... لم أُصرّح به علنًا ولم أُوسوِس لإحداهن صراحة لافتعال مشكلة مع زوجها، ولكن كان كلامي يأتي كما يأتي المحقن تحت جلد المريض، وكان وقعُه أشدّ وأعنف... أُظهر المحبة وخوفي على الواحدة منهن، وأتفنّن في سرد مميزاتها حتى تتيقّن أنني لا أنشد إلا الصالح لها ولبيتها، وما إن تشعر بالأمان نحوي حتى أبدأ في بثّ سُمّي وتصفية حساباتي مع الكون غير العادل، فالجميع في نظري ممن يُقال عنهن: (يدي الحلق للي بلا ودان). كثيرًا ما كان يتردد في ذهني لفظ: (اشمعنى؟). أصبحت حياتي قائمة على عمل مقارنات بيني وبين الأخريات، بين حياتهن وحياتي، بين أزواجهن وزوجي، خاصة عندما زاد الزمن قهره لي وتأخرت بالإنجاب...

مرت ثلاث سنوات دونما يحدث حمل. لا أستطيع أن أنكر أن أحدًا من زوجي أو والدته لم يتفوّه إلي بكلمة تُغضبني، على العكس، كانوا ودودين لطفاء. كنت في كل مرة أذهب إلى منزل أم زوجي تُدللني وتكرم ضيافتي وتحسن استقبالي، وعندما كنت أطلب منها الدعاء لي حتى يرزقني الله بطفل كانت تربّت على كتفي وتبتسم لي بحنان قائلة: كل شيء وله وقت، وربنا رزّاق واسع الكرم... اتعشّمي في الكريم وهيرزقك.

كم شعرتُ بأن الله عز وجل منّ عليَّ بوجود هذه السيدة الطيبة في حياتي، ولكن طيبتها تلك لم تكن لتشفع لأمير عندي؛ فقد كنت أتعمد إهانته وكأنني أثأر لنفسي من الرجل الذي أجبرني على القيام

بدوره في الحياة. والغريب أنني في كل مرة كنت أتعمد إهانته أو السخرية منه لم يكن يُبدِ أي ضيق، بل على العكس، كنت أجده دائمًا ما يصدر تلك الابتسامة البلهاء والتي تطورت بعد ذلك لضحكة أشد بلهًا مجلجلة مع التمتمة ببعض الكلمات غير المفهومة مصحوبة بهرولة من المكان كمحاولة لغلق موضوع الحوار أو حتى لا أزيد في إهانته.

كان تأخر الإنجاب هو أكثر ما يؤرقني ويعكر صفوي، فعلى الرغم من عدم إحساسي بالأمان مع أمير وعدم شعوري بأنني أعيش في كنف رجل وتحت ظله، إلا أنني كنت أتوق لابن... لا أعلم أهو الشعور الفطري بالأمومة كفطرة أي أنثى، أم هو الحاجة لامتلاك شخص أزرع فيه من أفكاري ما يجعله لا يرى غيري... لا يستطيع العيش بدوني... يتنفس من خلال رئتي... شخص أكون أنا قبلته وكعبته، لعله يعوضني عن ذلك الإحساس البغيض الذي لازمني منذ ولادتي بأن أحدهم لا يراني... ولا يكترث لأمري... شخص أتحكم به وأحكم السيطرة عليه... على اختياراته في الحياة، أُعامله كدمية أو كقطعة شطرنج لا يقاوم، فقط يستسلم وينفذ إرادتي.

كنت أصلي وأبتهل إلى الله طالبةً منه ذلك العوض. كنت ألح عليه في الطلب مع قطع نذر بالتوبة عن متلازمة الانتقام من النساء إذا منَّ عليَّ بذلك الطفل، وكأن ملائكة ذلك الطفل هي من ستطرد شياطين الجحيم التي تزين لي قهر النساء حتى أصبحت شهوة تفوق أي شهوة أخرى، وأصبحت عادة بل إدمانًا لا أستطيع الشفاء منه...

لم أيأس ولم أمل، وظللت أتضرع إلى الله عز وجل وكأن هذا الطفل سوف يخلصني من آثامي. وفي إحدى زياراتي المتكررة لعيادات أطباء أمراض النساء والتوليد اكتشف أحدهم بالصدفة حملي في الشهر الثاني، وما إن نطق الطبيب بتلك العبارة حتى خرَّ أمير ساجدًا على أرض العيادة، وفرت دمعة من عيني ظلت حبيسة منذ وفاة أمي ووجدت طريقها اليوم. كدت أطير من السعادة... السعادة... لم أعرف لها طريقًا ولم أذق لها طعمًا سوى اليوم... نعم، إنها السعادة الخالصة... سعادة خام. قاطع احتفالنا الطبيب وهو يملي علينا بعض التعليمات المتعارف عليها والمفروغ منها في مثل هذه الحالات، مع بعض التوصيات باتباع نظام أكل صحي متوازن بالإضافة إلى التأكيد على ضرورة المحافظة على الصحة النفسية وعدم التعرض لأي انفعالات طوال فترة الحمل. شكرنا الطبيب وخرجنا من العيادة وكأني لأول مرة أرى العالم بالألوان؛ فقد استجاب المولى عز وجل لندائي ووهبني من لدنه بغيتي. تذكرت ذلك النذر الذي قطعته على نفسي وقررت أن أكفَّ العالم شرّي وأصمت حتى يحفظ لي الله هديته وتصلني سالمة معافاة من أي مكروه.

مرت الأيام وأنا أعيش أجمل أيام حياتي، يدللني الجميع: أمير ووالده ووالدته، فقد كانت فرحة والدَيه لا تُضاهى؛ حيث كان جنيني هو الحفيد الأول لهما، وهو من سيجني ثمار كل ذلك الشوق للأحفاد وحده... تدللت كثيرًا، بل كنت في أحيان كثيرة أتعمد الدلال بسبب

وبدون سبب، وكأنني أرتشف الرحيق الذي عتقته لي الدنيا لسنوات عجاف جفَّ لعابي فيها ظمأً متلهفة لأن يراني أحد... واليوم أنا محط الأنظار، يتهافت الجميع بل ويتسابقون على إرضائي، فمن مثلي اليوم؟! أنا أم وليّ العهد المنتظر...

انقضت مدة حملي سريعًا، فالأوقات الجميلة دائمًا ما تمضي بسرعة، وجاء اليوم الموعود، اليوم الذي رأيت فيه العذاب ألوانًا، ألمًا وعذابًا لا قبل لي بهما، ووضعني حظي العاثر في طريق طبيبة لا تمت للطب بصلة بعد أن سافر طبيبي الخاص لحضور مؤتمر طبي فجأة. كانت تلك الطبيبة – والتي كنا جميعًا نرتاب في كونها طبيبة أصلًا، خاصة بعد ما فعلته، وهو ما ينم على أنها لم تقم بعملية توليد حتى لجاموسة في وحدة بيطرية في الأرياف ولو لمرة واحدة – سليطة اللسان، ذميمة الخلق، مما جعل أخي يفقد صوابه ويتشاجر معها ويرفع صوته مهددًا لها بغلق العيادة، وهو الأمر الذي لم تتقبله بالطبع وقامت بطردنا جميعًا من عيادتها مصحوبين بأبشع عبارات السِّباب غير مأسوف علينا... ما هذه اللعنة المرافقة لي دائمًا في كل لحظاتي الهامة؟ ولكن هذه هي اللحظة الأهم، والأمر لا يحتمل أي لعنات، الأمر يتعلق بحياتي وحياة وليدي...

أخيرًا ذهبنا إلى عيادة طبيب آخر، كنت أشعر وقتها أنني على شفا الموت، بل اعتقدت أنني متُّ بالفعل وعدت إلى الحياة مرة أخرى. لاحظ الطبيب مدى سوء حالتي فأمر بتجهيز غرفة العمليات على الفور، واصطحبني طاقم التمريض إليها. تعلقتُ بذراع أمير

وصممت على دخوله معي، ليس لشيء إلا أنني قرأت في مجلة أن الرجل الذي يرافق زوجته أثناء عملية الولادة يشعر بمعاناتها ويقدرها... مرت الدقائق ثقيلة متعبة، وأخيرًا سمعت صوت طفلي للمرة الأولى... سمعت صرخاته التي كانت في أذني أجمل من صوت العندليب، كان صوته هو آخر ما سمعته قبل أن أذهب في ثبات عميق...

أفقت من نومي على صوت رضيعي الذي لم أكن أتوق لشيء سوى أن أراه وأحمله بين يديّ. حاولت النهوض، وأسرع أمير وأمه لمعاونتي، ووجدت أخت أمير (فريدة) تحمل طفلي بين يديها، فمددت لها يدي كي تناولني إياه، وما إن تلقفته يداي ونظرتُ في وجهه حتى تملكني شعور غريب، ودبت في أوصالي قوة أزالت عني إرهاق وتعب كل ما مررت به... إنه لي... ملكي... ليس لأحد فيه سواي... أخيرًا وجدت ضالتي... أخيرًا حصلت على مبتغاي... لا أريد أحدًا أن يحمله، بل لا أريد أحدًا أن يلمسه... إنه أغلى ما أملك الآن... إنه أغلى شيء امتلكته طوال حياتي على الإطلاق... احتضنته بشدة وكأنه كان تائهًا لسنين وعاد لتوه إليّ... إنه لي... لي وحدي... وبدأ فصل جديد من حياتي... وبدأت قصة أخرى...

منذ الوهلة الأولى التي التقطت فيها يداي صغيري أحمد، وجدت نفسي وقد بدأت في تنفيذ خطتي التي طالما حلمتُ بها، وجدتني أرسم خططًا ومعاييرَ تناسبني أنا فقط، وقررت أن أدسّها جميعها في رأسه...

أخذ صغيري يكبر وأنا في قمة سعادتي، وهو يكبر أمامي عامًا بعد الآخر. كنتُ أعشقه بجنون حتى إنني كنت أرضعه حتى تجاوز الخمسة أعوام، وكنت أرفض فطامه حتى اتهمني الجميع بالجنون، وحدثت الكثير من المشاجرات بيني وبين أمير بسبب ذلك الموضوع، كادت في يوم أن تصل إلى حدّ الانفصال، ولكنني كنت أغلق علينا باب غرفتي وأُتمّ رضاعته... ظللت على هذا الحال حتى أتمّ عامه السادس واضطررت لأن أمتثل لرغبة الجميع وأقوم بفطامه، وما أقسى تلك الفترة على كلينا، فقد تعلّق بي أحمد تعلّقًا مرضيًا. نعم، كان يحب الجميع، وبالأخص جدته فهي من كانت ترعاه أثناء ذهابي إلى عملي، وأيضًا عمته أنغام والتي كان له في قلبها مكانة خاصة وكانت تُفرط في تدليله، ومثلها كنّ أخواتي، فهو الحفيد الأول للعائلتين وهو المدلل عند الجميع، ولكن لا أحد لديه مثلي، فأنا حبه الأول والأخير. نعم، أنا حبه الأول والأخير وسأظل كذلك حتى الرمق الأخير لي على وجه هذه البسيطة...

كنت أغار عليه حتى من جدته أم أمير، وحتى من إخوتي، فأنا أرى أن لا أحد يستحق حبه سواي، فهو ملكية خاصة فقط لي... فالويل كل الويل له إذا رأيته سعيدًا بعد عودته من عند إحداهن، كانت تسيطر عليّ حالة من الجنون لا أعلم سببها، لا أشعر بنفسي إلا وأنا أوْسِعه ضربًا مبرحًا بدون سبب، فقط لأنني أراه سعيدًا مع غيري، وكأنني أعاقبه على أنه عثر على السعادة ووجدها مع أحدٍ سواي،

حتى أصبح لا يُظهر هذا لي، أو لعله بالفعل لم يعد يشعر بالسعادة مع أحدٍ غيري.. وهل يجرؤ؟!

وعلى الرغم من أنه في هؤلاء الأعوام الستة رزقني الله ببنت أسميتها آلاء، وولدٍ آخر أسميته أنس على اسم أخي الشقيق، وهو الوحيد الذي ظل على علاقة طيبة معي هو وأختي أمل دونًا عن بقية إخوتي الأشقاء وغير الأشقاء، ولعل هذا يرجع لتشابه طباعنا نحن الثلاثة، فقد كان بقية إخوتي دائمًا ما يقولون إنّي وأمل وأنس الأقرب شبهًا لوالدنا قلبًا وقالبًا، إلا أن تركيزي واهتمامي ظلا منصبّين على أحمد الذي كنت أسير معه على وتيرة ثابتة معينة، هي الأقرب للبرمجة اللغوية العصبية، فقد خلقت له عادات تجعله لا يرى في العالم سواي.

كنت أصطحبه معي وأنا أقوم بكل أعمالي المنزلية، وأتجاذب معه أطراف الحديث وأحكي معه، ونذهب مع بعضنا البعض في عالمٍ موازٍ مليء بالحكايات والأحداث. جعلته يحكي لي كل تفاصيل يومه، كنت أحاصره بكثرة الأسئلة حتى اعتاد أن يقف أمامي ساردًا كل ما مرّ به أثناء يومه، لا سيما إن كان يقضي يومه عند أحد من الأقارب. تحوّل إلى ماكينة سرد أحداث، ينقل ما يخصه وما ليس له به شأن، المهم أن ينال رضائي واستحساني لأنه (حبيب ماما اللي ما بيخبيش عليها حاجة)...

كبر الأولاد وكبرت معهم احتياجاتهم، ولم تعد رواتبنا أنا وأمير تسدّ احتياجاتنا. لم أجد حلًا سوى أن أسافر للعمل بإحدى الدول

العربية، حيث جاء دوري أخيرًا في كشف الإعارات الذي كان منتشرًا في فترة الثمانينيات والتسعينات من القرن المنصرم.

عرضت الأمر على أمير، وجدته شديد الترحيب بالفكرة – خصوصًا وأنه اعتاد أن يرتكن إليّ في كل ما يخص الماديات – اللعنة على تلك الزيجة، فكم تمنيت أن أحصل على زوج يوفّر لي جميع سبل العيش الهنيء والحياة الرغدة المنعّمة، شأني في ذلك شأن كل أنثى طبيعية. ولكن مهلًا، فهناك هدف أسمى أسعى لتحقيقه، فإمبراطوريتي الآن مكتملة الأعضاء، حتى أن هناك عضوًا جاء دون رغبتي، وهو ابني الأصغر أنس الذي كنت قد سعيت للتخلص منه فور علمي بخبر حملي به، ولكن حالت الأقدار دون ذلك...

أتدرون... لقد لازم أنس إحساس مرير بالرفض صاحبه منذ كان جنينًا في أحشائي وحتى اليوم، ولعل هذا ما يجعله يميل إلى والده أكثر مني. ولكن من يهتم؟ فأنا أكرّس كل تركيزي نحو أحمد، والذي سعيت لأن أكون صنمًا يعبده كي يقرّبه إلى الله زلفى...

سعيتُ في إجراءات السفر، وبالطبع ساعدني أمير بكل ما أوتي من قوة وجهد، فها هو أخيرًا سوف يحصل على مستوى معيشي أعلى دون أي عناء يُذكر، حتى أبناؤنا فسترعاهم أمه معه، فلماذا يرفض إذًا؟ عملًا بمبدأ (اللي يلاقي دلع وما يتدلعش يبقى أهبل).

انتهيت من إجراءات السفر وسافرت مضطرة، لم يُعانِ لابتعادي سوى أحمد، والذي كنتُ أنا هواءه الذي يتنفسه، بل وكنت أنا أيضًا رئتَيْه اللتين تضمنان له وجود الأكسجين في جسده، ولا أنكر أنني

كنت أيضًا أعاني من ابتعادي عنه، ولكن ماذا أفعل؟ فللضرورة أحكام...

ذهبت واستلمت عملي، ولم أكن أتعامل مع أحد إلا في حدود لا أسمح لأحد بأن يتعداها.. لم أكن أشارك أحدًا من طعامي ولا أنضم إليهم حين يتحدثون أو حتى إذا أقاموا حفلات سمر، كنت أجلس بمفردي أكتب خطابات لأمير وآلاء وأنس، وبالطبع كان هناك في كل مرة خطاب منفصل لأحمد كي أدعم الرواسخ القوية بيننا، فهو الأغلى لديّ، والجميع يعلم ذلك بما فيهم إخوته. ولكن هل يملك أحدهم حق الاعتراض؟!

وبالطبع كانت تصلني خطاباتهم جميعًا في خطاب واحد، إلا أحمد فقد كان يرد عليّ في خطاب منفصل هو الآخر.

مرت الأيام والشهور وأنا أرسل الخطابات المحمّلة بالسلامات والأموال، حتى جاء اليوم الذي تلقيت فيه جوابًا لم أكن أتوقع مُرسله...

فذات يوم وصلني خطاب من أمّ أمير تشتكي لي حال ابنها غير المسئول، حيث إنه شديد التبذير، يبعثر كل ما أقوم بإرساله من أموال في سبل لا داعي لها.. يقرض أصدقاءه، يتمّم زيجات، يحل مشكلات، ورأيتهَا تطالبني بسرعة العودة حتى لا يتسنى له صرف ما تبقى من أموال في أوجه السفه...

شعرت بغليان الدم في عروقي ولم أحتمل ما قرأت، وهممتُ بالعودة إلى موطني وحرمانه من الرغد الذي يعيش به، وأنا أدفع ثمنه هنا في

الغربة بعيدة عن أهلي وأولادي. تنازلت عن إعارتي وعدت إلى بلدي، على الرغم من تفوقي الشديد في عملي والذي جعلني أحصل على أجر مضاعف ثلاثة أضعاف ما كنت أحصل عليه فور وصولي، ولكنني تركت كل هذا وقررت العودة والانتقام.

فاجأت الجميع بعودتي ووصلت دون أن أخبر أحدًا، فرح الجميع برؤيتي إلا أمير، وجدته قد ارتبك وانزعج لعودتي، وزاد انزعاجه بعد أن أخبرته بأنني لا أنتوي السفر مرة أخرى، وبأنني اكتفيت من الغربة... لم يستطع إثنائي عن قراري، خاصة بعد أن واجهته بأفعاله، ولم أرَ منه أي ردّ فعل سوى أن طأطأ رأسه أمامي ولم يستطع التفوّه ببنت شفة مدافعًا عن نفسه، ولكن تبدّلت معاملته، أصبح جافًا حادّ الطباع، لم يعد ذلك الشخص الذي كنت أتحكم به بنظرة عين، ولكنني لا أنكر أنه كان يخشى مواجهتي، فهو يعلم خطأه ويعلم مدى تقصيره في حقي وحق أولاده...

وفي يوم من الأيام تلقيت اتصالًا هاتفيًا من أخي أنس ينعي فيه أبي الذي وافته المنية صباح اليوم، تفاجأت بالخبر، فقد كان يتمتع بصحة جيدة حتى بعد أن وصل إلى عامه الرابع بعد التسعين، ولكنها مشيئة الله...

ذهبتُ إلى منزل أبي لأجد جميع إخوتي الأشقاء وغير ذلك منتشرون في المبنى السكني – والذي هو من ضمن أملاك أبي – وفي خضم الحدث سمعنا صخبًا آتيًا من أحد المحالّ التجارية التي يمتلكها أبي في المنطقة، هرع أخي أنس ومعه زوجي أمير واثنان آخران من إخوتي

غير الأشقاء إلى مصدر الصوت، فوجدوا ما لم يكن يخطر على قلب أحد في مثل هذا الموقف... خزانة أبي الرئيسية مفتوحة ومسروق كل ما كان بها من أموال مع بعض المشغولات الذهبية التي كان يدخرها في هذه الخزنة. تبادل الجميع نظراتٍ تعي جيدًا وتعرف أن من قام بتلك الفعلة هو أحد إخوتي كنوع من الانتقام من والدي الذي عُرف عنه البخل طيلة حياته، وها هو ينتقم لنفسه بسرقة مال أبيه وهو لم يُوارِ الثرى بعد...

بعد انتهاء مراسم الدفن مرّت بضعة أيام وقبل انتهاء فترة الحداد أسرع إخوتي في الانتهاء من إعلام الوراثة، وذهب كلٌّ منا يحسب على كم سيتحصل من تلك الثروة الهائلة والتي اشتركنا جميعًا في جمعها – على اعتبار أننا حُرمنا من كل ما نشتهي في طفولتنا – حتى زوجة أبي والتي أصبحت طاعنة في السن كانت تحسب وتعد نصيبها من التركة...

وبالفعل تحصل كلٌّ منا على نصيبه وافترقنا مرة أخرى، فلا داعي لجمعتنا فقد حصل كلٌّ منا على مبتغاه

مع حصولي على إرثي أصبح ظهري صلبًا، اشتد عودي وقويت شوكتي، فالآن اكتملت سلطتي... أنا من أملك، أنا من أمنح، وأنا من أمنع أيضًا... أصبح الجميع يطيعونني طاعة عمياء خالية من أي نوع من أنواع التفكير أو إعمال العقل، فأنا أمتلكهم تارةً من منطقة برّ الوالدين وتاراتٍ أُخَر أكثر من منطلق أن من يملك المال هو من يحكم... الآن فقط وبعد طول انتظار وبعد سنين عجاف أتت أعوام

أُغِثْتُ فيها من ظمأ الإهمال وعدم انتباه أحد لأمري، على العكس تمامًا أصبحتُ محط أنظار الجميع، لا يستطيع أحد التصرف في أتفه الأمور إلا بالرجوع لـ(ماما). حتى أمير عاد إلى سيرته الأولى معي، يتمنى لي الرضا، يبذل من كرامته ما يجعله يحصل على نصف ابتسامة رضا مني. أما أنا فقد أقسمتُ على أن أعوض كل ما عانيته، كما أقسمت على ألا أجعل شاردة ولا واردة إلا ولي فيها الرأي الأول والأخير، حتى ولو لم يكن الأمر يعنيني، لو لم يكن يخص حياتي من الأساس... أعلنتُ حربًا خفية، وأقسمتُ على العالم ألا أجعله يعيش في سلام إلا إذا وافق رغباتي...

توالت الأعوام وأنا كما أنا، فرضت على الجميع كوني كعبةً أنا قبلتهم جميعًا، لا يولّونَي الدُّبُرَ إلا وقت الصلاة ثم يعودون إليّ صاغرين مسلوبي الإرادة، يتوجهون نحوي كما يتحرك عباد الشمس في اتجاهها، ويدورون جميعًا في أفلاكي كدوران الكواكب حول شمسها...

كبر الأولاد ونحن جميعًا على حالنا. أصبح أمير كهلاً وقد زادته قلة حيلته كهولة، فانحنى ظهره. لا أعلم أللزمن يدٌّ في هذا أم أنه اعتاد الانحناء لي ولرغباتي. حتى أولادي أحمد وآلاء وأنس ظلّوا كما هم، أحمد أكثرهم تعلقًا بي وما زال بمجرد أن يراني يبدأ في سرد كل ما يجول بخاطره حتى ولو لم يكن الأمر يخصه، وكأن أحدهم ضغط على زر التشغيل في جهاز تسجيل. وظل أنس هو الأقرب لوالده، وظلت آلاء على صمتها قليلة الكلام، لا أعلم هل كان لتركها وحدها

وهي طفلة صغيرة عندما سافرتُ يدٌ في هذا أم لا، الأهم لديّ أني أسيطر تمامًا على مجريات الأمور.

أصبح الأولاد جميعهم في الجامعة الآن؛ أحمد في البكالوريوس، وآلاء في السنة الثانية، وأنس في الأولى. اعتادوا قلة المال، قلة الصرف، فأنا أملك المال حقًا ولكن لا أتصرف فيه إلا بحذر شديد. فقد كنتُ دائمة القول لهم: احنا غلابة أوي، احنا قليلين، احنا مش زي فلان... فلان ده معاه أكتر مننا بكتير... يا ترى بيعمل إيه بفلوسه وبيصرفها على إيه... يا سلام لو كنا قريبين منه كنا اتمتعنا معاه بفلوسه. حتى ترسخت تلك الكلمات في أذهانهم وورثوا عني مقارنة حالي بأحوال كل من حولي، بل وتكونت لديهم نظرة دونية لأنفسهم جعلتهم يحقدون حقدًا لا إراديًا على أي أحد يرونه يعيش في أبسط قدر من الرفاهية.

كنت أحثّهم على أن يُحسنوا اختيار شركاء حياتهم، فلابد أن يحصلوا على شركاء أغنياء حتى يُعينوهم على الحياة. بل وذهبتُ إلى ما هو أكثر من ذلك وأقنعت كلًّا منهم أن من سيتزوجهم لابد وأن يتكفل بكل ما هو متعلق بمصاريف الحياة بعد الزواج. وعملت على إفهامهم أن تلك هي الأصول سواء للأولاد أو للبنت، حتى شعرت بأن أصبح لديهم ازدواج في المعيارية؛ فكيف لهم كرجال أن يكون وضعهم كوضع أختهم في أن تجد من يعولها بعد الزواج؟ فهو أمر طبيعي جدًا لها كفتاة، ولكنه أمر مريب لهم كرجال. ولكنني لم أتعب في إيجاد مبرر، فها هو والدهم نموذج حيٌّ على تلك التجربة،

وألصقتُ كل هذا إلى أن الست الأصيلة اللي من أصل طيب عادي جدًا لما تصرف على جوزها وعيالها، واللي ما تعملش كده تبقى مش أصيلة. انتو مش شايفيني طول عمري بعمل معاكو ومع أبوكو إيه؟. استنكروا قليلًا ولكن الاستنكار لم يدم أكثر من ثوانٍ معدودة، فقد أحسنت اختيار المثل، وإن كنت لم أختره في الحقيقة، فهذا ما وجدوا عليه والدهم يبذل من كرامته في مقابل (إنه يتستت..

توالت الأيام وإذا بأحمد عائدًا من الجامعة وهو متجهم الوجه، شاخص البصر، تبدو عليه علامات التفكير العميق. وكالعادة لم أبذل مجهودًا لثبر أغواره، فوجدته يقبل عليّ كمن هو في حالة تنويم مغناطيسي ويجلس أمامي قائلًا: ماما، في واحدة زميلتي في الجامعة عايزاني أتقدملها.

تهللت أساريري وقلت: حلوة وغنية ومؤدبة يا حمادة؟

غمغم قائلًا: هي حلوة وغنية يا ماما، بس عملت موقف غريب.

تساءلت وقد تملكني القلق: عملت إيه؟

أجاب بسرعة وكأنه كان ينتظرني أسأله: لقيتها دخلت المدرج وقفلت الباب عليّا أنا وهي، وقالتلي هتتقدملي إمتى. اتفاجئت جدًا من اللي عملته وقلت لها: احنا مجرد زمايل، أنا ما قلتلكيش إننا هنرتبط. لقيتها فجأة فتحت باب المدرج وانهارت من العياط وأُغمي عليها، ولقيت صاحباتها بيقولولي: حرام عليك كده، توعدها وتعلقها بيك وتخلي بيها، وأنا والله يا ماما ما وعدتها بحاجة. والغريبة إنها ما فاقتْش إلا لما سمعتني بقول لصاحباتها: خلاص،

هقابل باباها. لقيتها فجأة فاقت وبقت كويسة، ولقيت صاحباتها بيباركولها، زي ما يكونوا متفقين.

شردت بذهني غير مصدقة لما أسمعه. فما هذه النوعية من الفتيات؟ نعم هي جميلة – على حد قوله – وغنية – وهو المطلوب – ولكن يبدو عليها أنها ليست بفتاة سهلة الطباع أو هينة، يسهل السيطرة عليها وضمّها لمجموعة نباتات عباد الشمس التي هي حولي – أقصد من أسيطر عليهم من زوج وأبناء وبعض الأهل والأصدقاء ممن قبلوا اتباعي. فقلت باقتضاب وبعصبية واضحة: لأ.

فأجاب مسرعًا: لأ إيه؟

فردْتُ عليه وقد بدأت عصبيتي تتزايد: لأ، مش هتتجوزها... دي ما تنفعكش ولا تنفعني.

رأيت وجهه وقد تجهم وكأن له وجهة نظر أخرى في الموضوع، وهمَّ أن ينطق ولكنه سرعان ما أطبق شفتيه وقام مسرعًا من أمامي قاصدًا والده. لم أكن بحاجة لاستنتاج ما يدور في ذهنه؛ فيبدو أن تلك الفتاة استطاعت أن تقنعه – ولو بالحيلة وبالإكراه – بفكرة الزواج منها، وهو مُغلَب على أمره لا يعلم كيف يتصرف، فقد وضعته في خانة اليك كما يقولون. أما أنا فكنت قد حسمت أمري وعلمت كيف سأتصرف معه كي أثنيه عن تلك الزيجة. نعم، إنه هو سلاحي المعتاد... الصمت العقابي. سأذيقه من العذاب ألوانًا باستخدام هذا السلاح الذي لا يستطيع تحمله منذ نعومة أظفاره. تركته يفعل ما

يشاء مع والده ويقص عليه ما يحلو له من قصص، ولكنني اتخذت قراري...

توالت الأحداث سريعًا، وسمعت أمير وهو يقول له ناصحًا: شوف يا أحمد... أنا مش موافق ووالدتك مش موافقة، بس طالما وعدتها يبقى لازم تكون راجل قد وعدك وتروح تتقدملها.

رأيته ضائعًا، مشتتًا بيني وبين رأي والده، ومما زاده ألمًا تلك الحرب النفسية التي قررت أن أشنها عليه؛ حيث تعمدت اعتزاله، لا أرد عليه إذا تكلم، لا أُجالسه في نفس الغرفة، لا أشاركه مائدة الطعام، تجنبته تمامًا وكأنني لا أراه... مرّ أسبوعان كان خلالهما قلبي ينفطر، فأنا أعشقه ولا أستطيع الابتعاد عنه كل هذه المدة، ولكنني أجبرت نفسي على القيام بذلك حتى يكون الدرس قاسيًا عليه ويتعلم ألا يخرج عن طوعي مرة أخرى. بذل هو أثناء هذه المدة كل الحيل ومارس كل الألاعيب كي يجعلني فقط أرد عليه أو أراه، ولكن هيهات، فلابد أن أتم الدرس حتى نهايته مهما بلغت قسوته...

وبعد أسبوعين وجدته هو ووالده يتجهزان للذهاب لخطبة تلك المأفونة التي بدأت قصتها معي بالتفريق بيني وبين ابني الأقرب، الوحيدة التي تجرأت على أهم وأغلى ممتلكاتي... تجاهلتهم هما الاثنين ولم أعرهما أي اهتمام، وأنا أراهم يتجهزون. لا يوجد أي تعبير على وجهي، مرتدية قناع اللامبالاة، أخفي وراءه نارًا اشتعلت بداخلي وراحت تنهش في أحشائي بلا رحمة...

توجَّه الاثنان إلى حيث هما قاصدان وجهتهما، وما هي إلّا ساعات قليلة حتى وجدتهما عائدين يرتسم على وجهيهما مزيج عجيب من الدهشة والصدمة والفرح في آنٍ واحد... لم أفهم في البداية ماذا حدث، وكان الفضول يعتصر قلبي، خاصة بعد أن رأيت أحمد يحمل باقة زهور في يده، مما يدل على أنه لم يحصل على مراده. تركتهم لبرهة، ولكنني لم أستطع التحمّل أكثر من ذلك، فتوجهت إليهم متسائلة: في إيه؟.. وإيه اللي في إيدك ده؟

أجابني، وهذا الخليط العجيب من المشاعر ما زال يقطن كل خِلجة من ملامحه: مفيش يا ماما، أنا روّحت أتقدملها زي ما بابا قالّي علشان أكون راجل معاها ووفيت بوعدي، وبصراحة كنت رايح مرعوب وعمال أدعي ربنا إن يحصل أي حاجة ووالدها ما يوافقش عليّا، وكنت فعلًا ناوي أصارحه بكل ظروفي بمنتهى الأمانة، بس اتفاجئت أول ما وصلنا شارعهم إن العمارة عليها نور، وسمعت أصوات زغاريد وأغاني. توقعت إنهم عاملين كده علشاني، بس لما طلعت لقيت ناس كتير قاعدين، ولما سألت عليها لقيتها قاعدة وجنبها واحد وبتتخطب.

ألجمت المفاجأة لساني واختلطت مشاعري، فأنا أشعر بفرحة عارمة لا حدود لها، وفي الوقت ذاته صدمة لا تُوصف. مرّت بضع لحظات وأنا على هذا الوضع، حتى انفجرت شفتاي رغمًا عني، وانطلقت صائحة: صدّقتني.. مش قلتلك.. دي بنت مش سهلة.. أهي لعبت بيك وهي كانت بتتخطب لواحد تاني أصلًا. ثم وجهت

كلامي لأمير ونبرة صوتي اتخذت مسارًا أكثر حدّة وارتفاعًا: سمعت كلامه ومشيت وراه! أهو أحرجك وخلّى الناس تتريق عليك... وعملتوا إيه بقى لما لقيتوها بتتخطب؟!

غمغم وقد خُيّل إليّ أن حاجبيه قد امتزجا مع شعر رأسه من الدهشة: ولا حاجة! قلنا لهم مبروك ومشينا. ثم انفجرا ضاحكين كما لو كانا يكتمان تلك الضحكة منذ قرن مضى. لم أجد مفرًّا من مشاركتهما الضحك، خاصة بعد أن سار الموقف لصالحي، مما جعلني كدت أقفز في الهواء معلنة انتصاري على تلك الأفعى التي حالفها حظها وجعلها لا تلقاني، وإن كنت بذلت جهدًا خارقًا لأُخفي أنني سامحته لمجرد أن الأمر مرّ بسلام، وأن تلك الزيجة لم تتم. وتركتهم في ضحكاتهم، وعاودت إدراجي مسرعة إلى غرفتي أعاود استعادة الوجه الذي فرضته على نفسي حتى أؤدّبه، وما إن رآني كذلك حتى أسرع الخطى خلفي، ووجدته يقفز أمامي ويقطع عليّ الطريق حتى لا أعود إلى ما كنت عليه واستمر في معاقبته. قفز مداعبًا: خلاص بقى يا ماما، حصل خير، والنبي كفاية كده بقى، أنا مش عارف أعيش!

رددت بعجرفة: بتكسر كلامي ورايح تاخد أبوك وروحتوا تخطبوها غصب عني؟!.. على العموم براحتك، وابقى خلّي أبوك ينفعك.

هممت بالانصراف، فوجدته يقطع عليّ طريقي مرة أخرى صائحًا بلهجة متوسلة: والله يا ماما ما كنت هاعمل حاجة من غير

موافقتك، أنا أصلًا مكنتش عايزها، بس اللي حصل في الجامعة خوّضني وخفت أتحمّل ذنبها.

هتفت مستنكرة: يعني خُفت تتحمّل ذنب واحدة غريبة، وما خُفتش على أمك؟! أظهر وبان عليك الأمان.. شكلك هتنسى أمك وترميها أول لما تتجوز يا أحمد! ربنا يستر يا أحمد.

عدت مسرعة إلى غرفتي قبل أن يستوقفني مرة أخرى، فلهث ورائي صائحًا: لا والله العظيم يا ماما، حضرتِك عارفة إنك أغلى حد عندي في الدنيا، وما أقدرش أزعّلك انتي بالذات.

تهللت أساريري فور سماعي تلك العبارة، وشعرت بفوقية رهيبة.. لا أدري على من، ربما على زوجته المستقبلية التي انتصرت عليها قبل أن أراها في معركة لم تُقَم بعد. ولكن نعم، فأنا حبيبته الأولى والأخيرة، لن يهتم بأحدٍ سواي، ولن يرضى بغيري بديلًا. اعتمل كل هذا بصدري فجأة، ولكنّي لم أَبُح به ولم أجعله يظهر على ملامحي، وإن التمعت عيناي لمعة يعلمها هو جيدًا، والتي ما إن رآها حتى أخذ يمازحني ويكسر ما تبقى من الجليد، حتى تأكد من أنه أذابه تمامًا، وبعد أن تأكد من ذلك ذهب لينام في غرفته لأول مرة منذ فترة طويلة نومًا هنيئًا...

لم يثنني تركيزي مع أحمد عن التركيز مع إخوته، فهذا هو دأبي؛ لا أترك شيئًا يمرّ مرور الكرام دون علمي مع أي أحد ممن هم حولي، فما بالكم بأبنائي... لاحظت تغيّرًا طفيفًا على آلاء، وهي القليلة الكلام المنغلقة على حالها، لا تتكلم إلا إذا أمطرتها بوابل من الأسئلة شأنها

شأن أنس، فكلاهما لا ينطق ولا يحكي لي من تلقاء نفسه، بل إنه يتوجب عليّ إحضار الواحد منهم وإجلاسه أمامي أن أبدأ في استجوابه كما لو كنت أسحب الكلام من فمه، وكأنني أجري معه تحقيقًا موسعًا...

جليت معها كعادتنا بعد تناول طعام الغداء، وبادرتها بالحديث ممازحة: عارفة يا آلاء، إنتي الوحيدة اللي ما تعبّتينيش في إخواتك طول فترة تعليمك، طول عمرك أشطر واحدة فيهم، بتذاكري وبتخافي على مصلحتك، ولا حتى تعبت معاكي في الثانوية العامة، ربنا يحميكي يا حبيبتي.

فأطرقت بخجل قائلة: طيب الحمد لله إني ما تعبتكيش، عشان بسمعك بتشتكي مني دايمًا لخالتو نجاة، وبتعرفيها كل حاجة بتحصل معايا.. هو لازم يعني كل حاجة تحصل بينّا تقوليها لها؟!

نظرت إليها مستنكرة بعد جملتها الأخيرة، فأدركت ما ترمي إليه.. نعم أنا أعشق السيطرة، ولكن يا للعجب، فأنا لا أستطيع السيطرة على لساني. أعلم جيدًا أني لا أتمتع بتلك المهارة، وليس هذا فحسب، بل أيضًا أعلم أنني من هواة نقل الكلام والأحداث وأشاركها بين كل معارفي، حتى أصبح كل من في محيطي على علم بما يدور في منزل كل منهم بلا استثناء.

أجبتها بنبرة تحمل شيئًا من الاعتذار: شكلك بتزعلي.. خلاص حقك عليّا، مش هاقول كده تاني...

أعلم جيدًا أنني لن أستطيع الوفاء بهذا العهد لها، ولكنّي قلت في نفسي: على الأقل لن أجعلها تسمعني وأنا أتحدث لأي أحد كما هو الحال مع إخوتها، وحتى أمير، فإن أحدهم لم يسمعني ولو لمرة واحدة وأنا أجري حديثي مع أي أحد سواء تليفونيًا أو حتى في جلسة سمر، حيث كان شعاري دائمًا: يحصل اللي يحصل بينّا، إحنا الستات الرجالة متعرفش عنه حاجة. لا أعلم لماذا، ربما لخوفي من أن يعرفني أحد منهم على حقيقتي، أو لربما لأني على يقين بأني لست على صواب دائمًا، أو ربما لأني خشيت أن أفقد سيطرتي عليهم إذا أدرك أحدهم طريقتي في تسيير الأمور. ولكن لا مفرّ من ذلك الوعد.. وفي النهاية هو مجرد وعد صغير، لا مشكلة إذا أعطيته لها حتى وإن حنثته...

أفقت من شرودي وأكملت حديثي معها: بس شكلك متغيّرة يا بطة، شكلك كده في حاجة، وإنتي عارفة إحساس ماما ما بيكدبش أبدًا.

أجابت على استحياء: بصراحة يا ماما، في واحد زميلي في الجامعة بقاله فترة بيلمّحلي إنه عايز يتقدّم لي.

سارعتها متسائلة بلهفة: غني؟

أجابت: شكله كده.. هو بيقول إن أهله تُجّار، وهو معاه عربية شيك جدًا بييجي بيها الجامعة، وبصراحة كل بنات الجامعة بيتخانقوا عليه.

تهللت أساريري وأنا أسألها: شكله حلو؟

أجابت بتململ: شكله حلو، بس دمه تقيل جدًا.

عاجلتها بخبث: هتعملي إيه بدمّه؟ المهم إنه غني وهيعملك كل اللي إنتي عايزاه، وهيحلّك وهيحلّنا معاكي.

ردّت في حيرة حقيقية: مش عارفة يا ماما، سيبيني أفكر. أنا كده كده ما قلتلوش آه ولا لأ، وقلت له سيبني أفكر.

إيديتها وأبديت استحساني لرأيها قائلة: ربنا يهديكي ويكمّلك بعقلك يا حبيبتي، أنا عارفة إن بنتي حبيبتي حتشوف المصلحة فين وتروحلها.

أيدت رأيي، وأنهينا الحديث عند هذه النقطة، وانصرف كلانا ليرى ما كان يفعل...

دلفت إلى غرفتي حيث يجلس أمير ونقلتُ إليه ما دار بيني وبين آلاء، وبالطبع لاقى الأمر استحسانه، خاصة بعد أن أبديت له موافقتي المبدئية ومَيلي لإتمام تلك الزيجة. أيدني في رأيي وترك الأمر لي أديره كيفما أشاء وفقًا لما أراه – وهل هناك جديد؟ فأنا الآمر الناهي هنا –.

تظاهرت بأنني أترك الأمر للأيام، ولكني كنت أراقب عن كثب كل تغيير يطرأ على آلاء، محاولةً استنتاج ما يحدث تارة، وأخرى أجلس معها وأستجوبها كالعادة، حتى أتى اليوم المنتظر ووجدتها تدخل من باب المنزل في شبه سعادة مستسلمة، قائلة: أنا اتفقت مع تامر يا

ماما إنه ييجي يتقدّم لبابا، وهو طلب مني رقم تليفونه وقال لي إنه هيتصل بيه علشان يحددوا ميعاد للمقابلة.

طرت من السعادة مع كلماتها، وأطلقت الزغاريد سعيدة بقرارها، مردفة: مليون مبروك يا حبيبتي، أنا كنت متأكدة إنك عاقلة وهتعرفي توزني الأمور كويس وتشوفي مصلحتنا كلنا فين وتعمليها، ولو على دمه يا ستي فلوسه هتخلي دمه خفيف، ده بكرة تموتي فيه من اللي حيشتريهولِك، واحنا أكيد هينوبنا من الحب جانب، ويمكن كمان يشغّل إخواتك معاه، وابقى كده ارتاحت.

أومأت آلاء بالموافقة وهي ترسم ابتسامة خفيفة على وجهها، في حين تجمع كل من في المنزل من إخوتها وأمير فور سماعهم الزغاريد التي أطلقتها، ورأيتهم يتبادلون التبريكات معها وكأن الأمر قد تم بالفعل، وعمَّت المنزل فرحة عارمة، كما جعلت كل واحد منهم يحلم بعمله مع زوج أخته، ورحتُ أنا أيضًا أرسم خططًا للحياة السعيدة التي تنتظرنا جميعًا، وغدوت أحلم بالهدايا الثمينة والولائم الشهية التي ستنهال علينا من أهل هذا العريس الذي يبدو كما لو أنه هبط علينا من السماء ليحقق لنا كل ما نرغب به... ولكن مهلًا، فلكي يقع في الفخ عليّ أن أقوم بتجهيزها بأحسن وأفخر أنواع الجهاز، فإن هذا سيخدم خطتي ويجعله يدرك أننا لا نريد منه شيئًا، وبأننا كُفء له ولنسبه، وليكن ما يكن بعد ذلك، لا يهم، المهم أن أتمم تلك الزيجة تمامًا كالصياد الذي يُغري السمكة بجودة الطُّعم، وكلما كانت السمكة أكبر كلما تطلّب ذلك طُعمًا أكبر...

كدت أجنّ من السعادة أنا وأمير عندما وجدنا هاتفه يدق برقم غريب، وكنت أكاد أقفز من فرط السعادة عندما وجدت صوت شاب صغير يأتي من الناحية الأخرى، قائلًا: السلام عليكم، إزي حضرتك يا عمي؟ أنا تامر زميل آلاء في الجامعة...

أتاه صوت أمير مجلجلًا من فرط السعادة والانفعال قائلًا: أهلا بيك يا حبيبي، أنا مستنيك من بدري... فعاجلته بلكزة في كتفه حتى لا يسترسل في الحوار أكثر من ذلك (التقل صنعة برضو)...

حاول استدراك ما قاله لتوّه فقال بابتسامته التي ما زالت على بلاهتها رغم الزمن: يعني عايز أشوف مين اللي وافقت عليه آلاء ده... وأديت له رقمي... أصلها كانت مجنانا، مش عايزة توافق على أي عريس من اللي اتقدّموا لها.

أتاني صوت تامر وقد انتشى مما سمع، ويبدو أنه ابتلع الطُّعم وصدق ما قاله أمير: دي حاجة تشرفني يا عمي، وطالما فيه قبول اسمح لي حضرتك نحدد ميعاد علشان أجي مع أهلي ونتقدم لآلاء رسمي.

انفرجت أساريرنا دفعة واحدة، وتوردت وجنتاي من فرط الانفعال، وصاح به أمير مهللًا: تشرفوا وتنوروا في أي وقت طبعًا يا حبيبي، إنت وماما وبابا، شوفوا الوقت اللي تحبوه وإحنا في انتظاركم.

لاقى كلامه استحسان تامر، واتفقا على القدوم إلينا يوم الخميس من نفس الأسبوع.

ما كاد أمير يغلق الهاتف حتى أطلقتُ الزغاريد في المنزل، وأنا أكاد أجن من السعادة، فها هو حلمي الثاني يتحقق... أخيرًا وجدت من يحمل عن عاتقي العبء المادي لهذه الأسرة: زوج ابنةٍ ميسور الحال، لديه من العمل الخاص ما يجعله يوفر عملًا لإخوتها أيضًا، ناهيك عن هداياه لأم زوجته حتى ينال رضاها وتتم الزيجة، فهل هناك أجمل من ذلك؟!..

بدأت على الفور تجهيز المنزل – الذي اشتريته بحُرّ مالي ولم يساعدني في ذلك أحد، ولا حتى أمير الذي اعتاد أنني أنا خزينة المنزل والوحيدة القادرة على إيجاد المال من العدم والقيام بالصرف على كل من يقيم به – نظّفت المنزل وكأنما العيد على الأبواب، وأعددت ما لذ وطاب من أصناف الحلوى، فلابد أن أتقن إحكام شباكي على هذا الفتى وعلى أهله حتى يتأكدوا جميعًا بأننا خير نسب لهم...

أما عن آلاء فقد عمدتُ إلى أن أشتري لها ثوبًا باهظ الثمن حتى يليق بأهل زوجها، وحتى تُبهرهم أيضًا، فقد أردت أن تخطف قلب العريس وأهله وتسلب عقولهم... نعم، ابنتي جميلة، ولكن كما تعلمون المظاهر هي الأهم في تلك الأيام...

وأخيرًا جاء اليوم الموعود... إنه الخميس أخيرًا يا سادة. قررت أن أحصل على إجازة من عملي في هذا اليوم حتى أتفرغ للإعداد والترتيب حتى يتم اليوم على أكمل وجه، تمامًا كما خططت له وأفضل. ناديت على آلاء وجعلتها تقوم ببعض روتين العناية بالبشرة، وجعلتها تستخدم بعض مساحيق التجميل بصورة خفيفة

ولطيفة على وجهها حتى تبرز جماله وتزيده إشراقًا، ويزداد إلى جمالها جمالًا. ذهبت هي لتنفذ كل ما أطلبه منها، وشرعت أنا وإخوتها في ترتيب الطعام والحلوى، وتولى أمير القيام ببعض المشاوير البسيطة بعد العودة من عمله لإتمام اليوم على أكمل وجه... وفي المساء، في تمام الساعة الثامنة كما كان محددًا مسبقًا مع تامر، وجدنا جرس الباب يدق كما لو كان جرس الساعة معلنًا أنها الثامنة مساءً.

أسرع أمير يفتح الباب وقد تجهزنا جميعًا، والفرحة تملأ قلوبنا وكأن اليوم عيد... ظلت آلاء في غرفتها كما طلبتُ منها، ونبّهت عليها ألا تخرج منها إلا عندما أطلب ذلك – وهو المتبع كتقليد في كل العائلات عند خطبة ابنتهم –، وبالفعل ذهبنا جميعًا لاستقبال الضيوف، وما إن خرجت إليهم حتى طالعني وجه شاب شديد الوسامة، طويل، عريض المنكبين، ابتسم لنا وشرع في السلام علينا، تلاه والده ووالدته، والذي يبدو أنه ورث منها جمال ملامحها. تقدمتُ إليهم، وسلمت عليها سلامًا حارًا، خاصة بعد أن رأيت منها بشاشة وجهٍ وألفة، أجلستهم وتبادلنا بعض عبارات الترحيب المعروفة في مثل هذه المواقف، ثم بادر والد تامر بالكلام، فسكتنا جميعًا استعدادًا لسماع ما سوف يقول، فابتسم قائلًا: بعد إذن حضرتك يا أمير بيه، أنا بطلب من حضرتك إيد كريمتكم آلاء لابني تامر اللي واضح إنه بيحبها جدًا، ده مش بيبطل كلام عنها. ثم صمت قليلًا وقد رأى الاهتمام على وجوهنا مخلوطًا بالفرحة، فأردف قائلًا:

وإحنا تحت أمر حضرتك وتحت أمر العروسة في أي حاجة تطلبوها، إحنا عايزينها بشنطة هدومها، مش عايزك تشيل هم حاجة، دي زي بنتي، وأنا من دلوقتي لو تسمح لي بقيت زيك، يعني أبوها.

تهللت أساريرنا أنا وأمير حتى إنه تلعثم عندما همَّ بأن يرد عليه، فوجدته يقول: طبعا يا حازم باشا حضرتك في مقام والدها، إحنا نتشرف بده، وإحنا حنجهزها أحسن جهاز، دي بنتي الوحيدة ومش حخليها تحتاج حاجة.

كم كنت سعيدة برده، فقد نطق بكل ما جعلته يحفظه عن ظهر قلب، فلا يوجد أفضل من هذا الرد، وبالطبع كان هذا هو ما يجب أن يسمعه تامر ووالداه، نعم فتلك هي الأصول... رأيت القبول على وجه كل من تامر ووالديه ورأيت سعادتهم مما سمعوه، وقد تبادلوا النظرات فيما بينهم برضا، فردّ السيد حازم بابتسامة طيبة ودودة: توكلنا على الله، ربنا يقدم اللي فيه الخير.

بادرت والدة تامر وقد عرفت من سياق حديثهم أن اسمها صفية، وهتفت بسعادة: أومال فين العروسة؟ مش تندهالنا علشان أشوفها.. أنا حبيتها من كتر كلام تامر عنها، طول الوقت بيحكي عن جمالها وأدبها ورقتها وقد إيه هي محترمة وقليلة الكلام.

فأجبتها بابتسامة عريضة: تسلمي يا حبيبتي، ده من ذوقه.

ثم رفعت صوتي نسبيًا كي أدعو آلاء للانضمام إلينا هاتفة: تعالي يا لولو، سَلِّمي على طنط، بتسأل عليكي. وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى دخلت علينا آلاء بابتسامتها العذبة، كانت طلتها حقًا مبهرة وقد

تألقت في ثوبها بلونيه الوردي والأبيض مع استخدامها لمساحيق تجميل بسيطة أضفت على وجنتيها حمرة مُحببة جعلتها تزداد ألقًا... التفت إليها الجميع في انبهار، وسمعت بعض عبارات الاستحسان من كل من والد تامر ووالدته. جذبتها لتجلس بجواري بعد أن حيّت الجميع وتبادلت السلام مع والد تامر ووالدته، وقلت وقد تملكني زهو كما لو كنت أقدم طبق حلوى أحسنت صنعه وليست ابنتي التي هي من صنع الله عز وجل.

تبادلنا بعض الأحاديث، ثم قام تامر وقدم لابنتي هدية عبارة عن خاتم من الذهب يبدو عليه الفخامة مما يدل على ارتفاع سعره، أهداها إياه وسط مباركتنا جميعًا. وقتها كانت دقات قلبي تعلو حتى خفت أن يسمع صوتها جميع الحاضرين، وإن كنت أحاول جاهدًة أن تبدو فرحتي طبيعية في مثل هذا الموقف...

قمنا بقراءة الفاتحة وقدمتُ أصناف الحلوى، وأقمنا شبه احتفال صغير، وفي نهاية جمعنا السعيد اتفقنا على موعد لإقامة حفل الخطوبة بعد شهر من يومنا هذا. واستأذن الحاضرون ومر اليوم بسعادة وسلام تمامًا كما تمنيت وأكثر...

مرت الأيام وأنا أرى ابنتي ليست سعيدة كفاية كمن هن في مثل وضعها، فطبيعة الفتاة التي تم خطبتها أن تكون سعيدة ومشرقة، ولكن على العكس تمامًا كانت ابنتي... كنت أسمعها إذا هاتفها تامر ترد بعبارات مقتضبة وتتعمد إغلاق الخط بسرعة، وحتى إذا طلب تامر أن يأتي لزيارتها كانت ترفض بدبلوماسية معللة ذلك بانشغالها

في استذكار دروسها وإصرارها على الحصول على تقدير ممتاز، فهكذا اعتادت. تجاهلت الأمر حتى لا أفتح لها بابًا للنقاش في هذا الموضوع، فمسألة الزواج من تامر ليست مطروحة للنقاش أصلًا، ويمكنها أن تعتبره أمرًا وليس طلبًا، فالفرد يجب أن يضحي من أجل الجماعة، كما أني لا أرى أن زواجها منه يعتبر تضحية، فهي من ذكرت بنفسها أن أغلب الفتيات في الجامعة يتنافسن من أجل الفوز بتامر، فالزواج منه ليس عقابًا بل هو جائزة تفوز بها الأكثر ذكاء وحنكة. أما عن المشاعر فهي ليست ضرورة لإقامة حياة زوجية، فالمال هو الأهم...

اقترب موعد الخطوبة وكان علينا الذهاب مع تامر ووالدته لاختيار (الشبكة) كما اتفقنا من قبل، وقبل أن نذهب جلستُ لأعطي ابنتي بعض التعليمات حتى نحصل على مبتغانا، ولكي نعرف ما إذا كان تامر بخيلًا أم لا، فمن وجهة نظري هذا أول اختبار يوضع فيه تامر كي أرى إن كان مناسبًا لأفكاري أم لا... طلبت منها أن تختار ما يحلو لها مع الوضع في الاعتبار أنه كلما كبر حجم القطعة الذهبية كلما كانت أكثر أناقة – فهذا ما أردته – همت بالاعتراض فقلت لها باقتضاب لا يقبل المناقشة: دي قيمتك، وانتي مش قليلة، ولازم يدفع فيكي عشان يعرف قيمتك.

أومأت برأسها متفهمة وذهبت لاستكمال ارتداء ملابسها. وفي متجر المجوهرات جلسنا أنا وآلاء وتامر ووالدته، وأخذ الصائغ يعرض علينا ما لديه من مشغولات ذهبية كانت جميعها غاية في الأناقة

إحاقًا للحق. فنظرت لي آلاء نظرة تعني أن أأذن لها باختيار ما تريد، فأومأت لها خلسة بأن تأخذ مما هو معروض أمامها، فيبدو أن تامر قد اجتاز الاختبار الأول بنجاح... بعد الانتهاء من اختيار الشبكة قرر تامر أن يدعونا للعشاء في أحد المطاعم الفاخرة احتفالًا بتلك المناسبة. كل خطوة كانت تؤكد لي أنه هو الزوج المنشود الذي أتمناه لابنتي، متجاهلة تمامًا رأيها فيه بأنه دمه تقيل شوية، فهذا ليس مهمًا على الإطلاق، أنا لا أرى هذا إلا مجرد دلع بنات، ثم إن مفيش حد كامل...

عند وصولنا إلى المطعم جلسنا جميعًا إلى الطاولة وقلبي يتراقص فرحًا، فها هو مستقبلي في التدليل قد بدأ لتوه... أثناء جلستنا لاحظت أن معاملة آلاء مع تامر ليست على ما يرام، فهي لا تنظر تجاهه قط وتتعمّد التطلع إلى الفراغ حين يحادثها، وإذا اضطرت إلى التحدث إليه فإنها تتحاشى النظر في عينيه. دعوت الله في سري ألا يلحظ أحد من تامر أو والدته تلك التصرفات التي أشعلت الغضب بداخلي، ولكنني حاولت أن أتمالك نفسي، كما أنني تعمدت أن أتحدث عن خجل ابنتي الشديد وأدبها الجم محاولة إعطاء مبررات مسبقة لتلك الأفعال، ولكنني كنت أنوي محاسبتها حسابًا عنيفًا على ما رأيته...

مرت جلستنا وتناولنا طعامنا، وأثناء ذهابنا للمنزل رمقتها بنظرة أطلتُ لها الرعب جليًّا من عينيها، فقد فهمت ما أرمي إليه دون عناء، فهي تعلم جيدًا كيف أعاقب من يعصاني... وفور عودتنا إلى المنزل

كان لي جلسة معها، كما أنني دعوت والدها ليكون شاهدًا على أفعال ابنته. وبختها قائلة: انتي مش عايزة تجيبيها لبر؟ الراجل ما قصرش معاكي في حاجة! جايب هدية غالية في قراية الفاتحة، والنهاردة جابلك شبكة تحلم بيها أي بنت في مكانك! والله لو شوفتك بتتعاملي معاه كده تاني، صدقيني يا آلاء، مش هيحصلك كويس.

رأيت دموع القهر تلمع في عينيها، ولكنها استجابت لرغبتي وانطلقت إلى غرفتها محاولة تهدئة ما يجيش بصدرها. وهنا تدخل أمير وهو شارد فيما حدث، موجّهًا حديثه إليّ: آلاء شكلها مش موافقة ومش مرتاحة يا منى، مفيش داعي نضغط عليها أكتر من كده، هي اللي هتتجوز، والجواز أهم شرط فيه هو القبول.

كانت جملته تلك كفيلة بأن أطلق عليه ما تبقى داخلي من غضب، فصحت به صيحة هادرة: بلاش سخافة ودلع بنات! ولا كمان هنقول حب ومش حب! أنا اللي أقرر هنا! أنا أدرى منها بمصلحتها، ولا حسيبها تجيبلي واحد شحات نصرف عليها وعليه بعد الجواز، وتقولّي أصل ده حبيته!

صُدم من ردة فعلي وتجمّدت ملامحه، ثم قام مسرعًا من أمامي وانزوى في غرفته، ولكن أعتقد أن الأمر لن يمر مرور الكرام هكذا.

اقترب موعد حفل الخطوبة والذي أصر تامر وأهله على أن يكون مجرد حفل بسيط في منزلنا يقدم فيه الـ«شيكو» لعروسه ثم يتجهان سويًا لتناول العشاء في أي مطعم. انهمكنا جميعًا في الإعداد لهذا الحفل، حتى آلاء وجدتها مهتمة جدًا بتفاصيل ثوبها وما شابه

من احتياجات الفتيات في مثل هذه المناسبات السعيدة، فحمدت الله على أن تلك الأفكار السخيفة قد تبخرت من عقلها، وهي الآن تعي مصلحتها جيدًا وعادت إلى صوابها...

وفي يوم حفل الخطوبة كان اليوم جميلًا بسيطًا يحمل طابعًا هادئًا كما أردنا جميعًا. قدم فيه تامر الشبكة لآلاء وذهبا لتناول العشاء، ولكنها عندما عادت وجدتها وقد تبدلت ملامحها، لم ألبث أن أسألها عما بها حتى وجدتها تندفع إلى دورة المياه، ثم سمعتها تفرغ ما في معدتها، ثم أخذت تسعل بشدة. وعندما خرجت وجدتها في حالة إعياء شديد، أصابني الذعر من منظرها، وعندما سألتها ماذا حل بها، فقد كانت أثناء حفل الخطوبة على خير ما يرام، فلم ترد سوى بعبارة مقتضبة: مفيش حاجة يا ماما، ممكن يكون برد ولا حاجة. ثم أنهت الحوار سريعًا وذهبت إلى غرفتها كي تستريح...

وفي صباح اليوم التالي وعندما استيقظت، أسرعت إليها كي أطمئن عليها، فوجدتها يبدو عليها آثار الإرهاق، لكنها رفضت الحديث عن أي شيء.

لم أعد أسألها، وفقط اكتفيتُ بمراقبتها من بعيد. كنت أراها وهي تنطفئ شيئًا فشيئًا. لم تعد تنضمّ إلينا إذا جلسنا نتسامر أو إذا ذهبنا في اجتماع عائلي، لم تعد تضحك، كانت إذا ابتسمت نتهلل فرحًا. أصابها ألمٌ مستمرّ بمعدتها جعلها لا تستطيع الأكل، وتكرر كثيرًا ما حدث يوم عودتها مع تامر بعد حفل خطوبتها، لا سيما إذا حضر تامر لزيارتها. وعندما ذهبنا بها إلى عدة أطباء أجمع الجميع على أنه

لا يوجد مرض عضوي، وإنما كل ما تمر به ما هو إلا حالة نفسية سيئة ناتجة عن وقوع ضغط هائل عليها، ونصحونا بالتقرب منها ومعرفة ما بها وإلا ازداد الأمر سوءًا.

كل هذا وأنا أعلم السبب وراء حالة آلاء النفسية، ولكنني كنت أتجاهل ذلك معللةً بأنها سوف تعتاد على تامر وتحبه، خصوصًا بعد أن رأيت الهدايا التي كان يغرقنا جميعًا بها.

ولكن ذات يوم خرج فيه أمير عن صمته وعن شعوره فجأة، كان هذا بعد نوبة من البكاء دخلت فيها آلاء انتهت بما يحدث في كل مرة من ألم في المعدة وما يصاحبه من تقيؤ وهُزال، وجد أمير يصرخ في وجهي غضبًا:

حرام عليكي بنتك، انتي عايزة تموتيها؟ البنت كارهاه ومش حابّاه، كفاية ضغط بقى!

لأول مرة منذ عرفتُ أمير أراه في مثل هذه الحالة؛ غاضب، ثائر، لا يخشاني، ويتحدث بملء فمه... يبدو أن غريزة الأبوة قررت وضع حدًّا لما يحدث...

نظرتُ إليه متسائلة في رعب مما أعلم جيدًا أني سأسمعه:

يعني إنت عايز تعمل إيه دلوقتي؟

أجاب وما زالت ثورته عارمة:

هكلم تامر وأقوله كل شيء قسمة ونصيب، وتعالى خد شبكتك وهداياك.

أجبت وقد هبطت كلماته عليّ كالصاعقة: حتى الهدايا اللي جابهالنا؟

أجاب وقد بلغت ثورته مبلغها:

كل حاجة يا منى... كل حاجة. اتقي الله في بنتك، بنتك لو جرالها حاجة مش هتعرفي تعوضيها ولا بمال الدنيا... اتقي الله.

قالها ثم انصرف مسرعًا من أمامي، طارقًا باب الغرفة خلفه بشدة جعلته يصدر صوتًا هائلًا كما لو كان يوبخني هو الآخر... تسمرت في مكاني، ثم أتاني صوت أمير وهو يتحدث في الهاتف بشيء من الهدوء محاولًا السيطرة على انفعاله:

ازيك يا تامر؟ عامل إيه يا حبيبي؟ وبابا وماما؟ يا رب تكونوا بخير جميعًا.

صمت لبرهة تاركًا مساحة من الوقت لتامر كي يرد عليه، ثم سمعته يقول بحسم:

شوف يا تامر، إنت زي ولادي أحمد وأنس، وعارف إني بحبك وبحترمك إنت ووالدك ووالدتك، بس اعذرني يا ابني، كل شيء قسمة ونصيب. استأذنك تتفضل تيجي علشان تاخد شبكتك وحاجتك، بنتي مش قادرة تكمل.

أرهفت السمع وكدت أفقد وعيي مما أسمعه، ثم أتاني صوت أمير مقاطعًا لتامر الذي يبدو أنه صُدم من المفاجأة:

إنت مش غلطان يا تامر ولا آلاء، الغلط كان مني أنا لأني ما سألتش بنتي من الأول هي مرتاحة ولا لأ. كل شيء بالخناق يا ابني إلا الجواز بالاتفاق. لو سمحت شوف هتيجي امتى وبلغني. مع السلامة.

قالها وأغلق الهاتف ولم يسمح لتامر حتى بفرصة لمحاولة إقناعه.

التزمتُ غرفتي غير قادرة على مغادرتها، وكأن قدماي رفضتا حملي، ثم سمعت صوته يتجه إلى غرفة آلاء التي أصبحت لا تفارقها ولا تفارق فراشها معظم الوقت، وسمعته يقول لها بلهجة يشوبها الاعتذار:

خلاص يا حبيبتي متضغطيش على نفسك تاني، وحقك عليّا أنا.

سمعتُ صوت آلاء وهي تبكي في ضعف نظرًا لحالتها الصحية، وردّت في وهن: شكرًا يا بابا.

لم أستطع أن أخالفه الرأي، فما رأيته يحدث لابنتي جعلني أقف عاجزة أمام رغبتها. فأنا لا أستطيع خسارتها مقابل المال، على الرغم من أن الزيجة كانت شديدة الإغراء...

لم تمضِ ساعة حتى وجدنا تامر بالباب. استقبله أمير بشيء من الود، ولكن أتاني صوته متعجبًا لأمير:

إيه اللي حصل يا عمي؟ أنا صدر مني أي شيء ضايق آلاء؟

أجابه أمير بهدوء:

لا يا ابني، ما حصلش منك ولا من أهلك أي حاجة. بس زي ما إنت عارف، الجواز قبول وراحة، وأنا شايف بنتي من أول يوم مش

مرتاحة، بس أنا طاوعت والدتها علشان شُفتك إنت وأهلك ناس محترمين، وقلت أديها فرصة يمكن تحبك، بس واضح إنها مش قادرة. الحب ده بتاع ربنا، وإنت إنسان محترم، وأهلك ناس طيبين، وربنا إن شاء الله هيدّيلك اللي أحسن منها.

وهنا ثار تامر وتبدل حاله، وسمعت صوته وهو يرتفع مجلجلًا:

قبول؟ حضرتك بتتكلم دلوقتي عن القبول؟ حضرتك ناسي إن أنا وآلاء زمايل في الجامعة بقالنا سنتين مع بعض؟ وافتكرتوا دلوقتي إن مفيش قبول؟!

عموما أنا فهمت حضرتك طاوعت والدتها على إيه، وفهمت انتو وافقتوا عليا ليه من الأول.

استأذن حضرتك في الشبكة وباقي الهدايا... خليهالكم. ما تلزمنيش، لا هي ولا بنتكم.

أصابت كلماته أمير في مقتل، فهو يعلم بالفعل ما كنت أَرنو إليه بتلك الزيجة، فأطرق رأسه ولم يرد على تامر، ثم أتى له بالشبكة. وما إن تناولها تامر حتى هب واقفًا وأسرع تاركًا إيانا جميعًا في حالة من الوجوم تسيطر علينا...

ظللنا على هذا الحال لفترة من الزمن، نهرب جميعًا من أن تلتقي أعيننا ببعضها البعض، فجميعنا يعلم أساس ما حدث، وإن حاولوا جميعًا تحميلي الذنب كله وحدي. ولكن أنا لا أفهم... ماذا اقترفت؟ أليس من حقي أن أحلم بمعيشة هانئة لنا جميعًا؟

نعم، أنا لا أهتم من يوفرها لنا، وأعلم جيدًا أن لديّ من المال والمدخرات ما يكفل لنا حياة مرفهة، ولكن هل كُتب ذلك عليّ وحدي؟ ألا يوجد غيري يتحمل عبء تلك الأسرة؟ لماذا ينتظر الجميع مني المال؟ إنها أموالي، لي... لي وحدي. قد اضطر لإنفاق جزء منها على أحدهم، ولكن لن أفعل حتى أضمن العائد من هذا، والذي لابد أن يكون مجزيًا...

فهذا ما تعلمته من معاملات والدي التي كنت دائمًا ما أسمعه يتعامل بها مع الناس. فأنا أذكر جيدًا حديثًا دار بينه وبين أحد أصدقائه كان يقصّ عليه فيه قصة لتاجر يهودي عاش قديمًا، كان عمله يقوم على إقراض الناس، وكان معروفًا عنه بخله وحرصه الشديدين على المال. وكان هناك تاجر مصري دائم الاقتراض من هذا الرجل اليهودي، فقد كان معتادًا أن ذلك المرابي يترك له ما يريد من مال في مكان معيّن داخل خزانته، وعندما كان يحتاج لاقتراض المال كان يذهب دائمًا إلى هذا المكان، يقترضه، ثم بعد أن يقضي مصلحته يعيد المال لليهودي مرة أخرى.

واستمر الحال على هذا لسنوات، ولكن ذات يوم تعثر التاجر المصري فلم يسدد القرض، وذهب مرة أخرى للمرابي طالبًا منه جزءًا إضافيًا من المال مع الوعد برد الدين كله فور بيعه لبضاعته. فما كان من المرابي إلا أن قال للتاجر الطيب:

اذهب إلى المكان الذي اعتدت أن تجدني واضعًا لك فيه المال، إن كنتَ قد وضعتَ ما اقترضتَه فسوف تجده هناك، خذ منه ما شئت...

منذ تلك اللحظة انطبعت بذهني تلك القصة وصارت نبراسي في الحياة... أصبحت نهجي الذي أسير عليه، فقد راقت لي كثيرًا... جعلتني أشعر أن المال ليس وسيلة بقدر ما هو غاية...

أشعر بسعادة بالغة وأنا أدخر... لا، ليست سعادة فقط، بل أشعر بالأمان. وما يجعلني سعيدة حقًا إذا وجدت أحدًا يجعلني أدخر ولا أصرف من مدخراتي شيئًا، ويجعلُه يوفّر لي ولأسرتي كل ما يلزمني من رفاهيات. يا إلهي، كم أنتشي من هذا الشعور، كم أشعر بالتفوق والرضا عن نفسي! فأنا أعتبر أن ما يحدث هذا هو شطارة... اجتهاد... نعم... ولمَ لا؟

ماذا سيفعلون بكل هذه الأموال التي معهم؟

هذا السؤال دائمًا ما يتبادر إلى ذهني إذا وجدت من يملك المال... أظل أفكر لأتقرب منه، وأجعل لنفسي حظًا فيما يملك... وما الذي يمنعه؟

فمن أرادني في حياته عليه أن يدفع مقابلًا لذلك... نعم، فأنا أستحق، ولا أحد غيري...

مرَّ عامٌ على تلك الواقعة، تخرَّج فيه أحمد من الجامعة ونزل إلى سوق العمل، أظهر فيه تفوقًا ملحوظًا سرعان ما جعله يجيد

الحصول على المال، وسرعان ما أقنعته يبدأ في الادخار ويُبقي ما يدخره معي معللةً ذلك بأنني أساعده حتى يتمكن من شراء شقة وتجهيزها استعدادًا لزواجه. خلال هذا العام أيضًا أصبح أنس في عامه النهائي بالجامعة، كما أصبحت آلاء في الفرقة الثالثة، وكانت لتوِّها قد فسخت خطبتها لابن عمتها والذي تقدم لها عقب فسخ خطوبتها من تامر ببضعة أشهر. كنت قد وافقت على تلك الخطبة على مضض، فلم أكن أرغب به زوجًا لابنتي، ومما زاد الطين بلة هداياه غير ذات القيمة التي وجدته يقدمها لابنتي، ناهيكم عن المشاكل التي لا تُعد ولا تُحصى الناجمة عن زواج الأقارب. المهم أنه في النهاية تم فسخ تلك الخطبة، خصوصًا بعد مشكلة انحازت فيها أم أمير لأنغام ابنتها والدة العريس، مما أسفر عن قطيعة بين أمير وبين والدته وأخته، كان لي فيها اليد الطولى حيث حاولت إبراز كم الإهمال وعدم التقدير لابنتنا والاستخفاف بها وعدم الاكتراث لأمرها من أهله الذين اعتبروها زيجة رخيصة الثمن غير مكلفة...

ولكن بعد بضعة أشهر دُعيت آلاء إلى حفل زفاف صديقة لها، وعند عودتها وجدتها متهللة الأسارير سعيدة ومشرقة، وأنا أفهم أبنائي من مجرد النظر إليهم. وجدتها تُسرع إليَّ وفي عينيها بريق مميز له مدلول خاص، فبادرتها بخبث: إيه الجمال ده يا لولو؟ هو اللي بيحضر فرح صاحبته بيحلُّو كده؟

أطرقت على استحياء: بصراحة... شوفت شاب في الفرح شدني جدًا، وواضح إن أنا كمان لفتُّ نظره، كان متابعني طول الفرح، وقبل

ما أمشي جالي وسألني إذا أنا مرتبطة، ولما عرف إني مش مرتبطة استأذني أديله رقم تليفون بابا.

أجبتها بنظرة تعني: يا رب تكمل المرة دي بقى.

أومأت برأسها وهي تبتسم: أميرة صاحبتي بنت خالة العروسة قالتلي إنها تعرفه كويس جدًا هو وأهله، هو أكبر مني بحوالي ٩ سنين.

ثم ضحكت بصورة مفاجئة مضيفة: والده رجل أعمال كبير، وهو بيشتغل معاه، هو ابنه الكبير ومعتمد عليه في كل حاجة تقريبًا...

قاطعتها صائحة وقد بدأت تتسلل السعادة إلى داخلي: تاني يا لولو؟ تاني بيشتغل مع والده؟

أردفت في لهفة: بس المرة دي أنا مرتاحة له يا ماما وعايزاه.

أجبتها بسرعة: هو انتي لحقتي ترتاحيله؟

أومأت برأسها مغمغمة: في قبول مبدئي كبير، لكن تامر ما كانش في أي نوع من أنواع القبول، على الرغم من إننا كنا زمايل في الجامعة سنتين.

رددْتُ بخبث: يعني اديتيله رقم تليفون بابا؟

أطرقت في خجل وهي تجيب: أيوه... وهيكلمه بكرة بإذن الله.

عاجلتها: طيب روحي عرفي بابا بقى.

قامت متلهفة من أمامي وأسرعت الخُطى نحو أمير الذي سمعته يقول: يعني في قبول المرة دي يا لولو؟

أجابته على استحياء: أيوه يا بابا.

فرد بسعادة: "ماشي يا ستي... اسمه إيه بقى سعيد الحظ ده؟

أجابت بلهفة: محمد.

رد عليها مبتسمًا: ده احنا سألنا وعرِفنا كل حاجة أهو... عمومًا ربنا يقدم اللي فيه الخير يا حبيبتي.

ثم قبَّل جبينها وانصرفت إلى حجرتها.

أقبل إليَّ يشاورني في الأمر: إيه رأيك يا أم آلاء؟

فنظرتُ له نظرة ذات مغزى فهمها على الفور: أنا مش هتكلم المرة دي علشان ما ترجعوش تلوموا عليا زي المرة اللي فاتت.

فرد ممازحًا: خلاص بقى يا منى ميبقاش قلبك أسود بقى، البنت شكلها موافقة ومبسوطة، وده محصلش المرة اللي فاتت.

اكتسى صوتي بطابع الجدية وأنا أردف: هي بتقول إنه والده رجل أعمال كبير، يعني مبسوطين ماديًا، وهو أكبر واحد في أولاده وبيشتغل معاه.

أجاب بابتسامة خبيثة: يعني زي ما انتي كنتي عايزة... أهو غني.

حاولت أن أكتم ضحكة كادت تفلت مني: والله هنشوف، لو هي مبسوطة أنا موافقة.

غمز لي بعينه وقال ممازحًا: طيب هنشوف... ربنا يقدم اللي فيه الخير.

وفي اليوم التالي وجدت اتصالًا هاتفيًا من أمير أثناء ساعات عملي وعمله، أجبت باستغراب: خير يا أمير، في حاجة؟

أتاني صوته متهللًا: محمد كلمني وعايز ييجي البيت هو وأهله علشان يخطبوا لولو.

حاولت التحكم بلهفتي قائلة: هو كلمك؟ تمام... وعايز ييجي إمتى؟

أجاب بنفس الفرحة: في أسرع وقت، شكلهم مستعجلين قوي.

تراقص قلبي من الفرحة، وكادت دقاته تُسمع من حولي من زملاء العمل، ورددت بتعقل مدروس: والله... طيب... ربنا يقدم اللي فيه الخير. مع السلامة دلوقتي علشان عندي شغل."

أغلقت الخط وأنا أحلم، فها هو الأمل عاد من جديد، ولكن تُرى هل تكتمل الزيجة هذه المرة؟

ورحت أتساءل:

هل ممكن...

كلاكيت ثالث مرة...

جهزنا المنزل، وأعددنا الحلوى، وجلسنا في انتظار العريس المنشود...

وفي المساء دق جرس الباب وذهب أمير ليفتحه، وذهبت أنا وأحمد وأنس نستقبل الضيوف. سلمت على محمد ثم والده ووالدته، ولكن مهلًا... ما هذا؟ ما هذه النظرة التي أُلمحها في عين والدة محمد؟ إن هذه السيدة لا تبدو كسابقتيها، تبدو عليها ملامح القوة

والفطنة، كما أنه ظهر من طريقة تعامل محمد ووالده معها أنها هي من يتولى إدارة شؤون العائلة، وكذلك كل شؤون أسر أبنائها، المتزوجون منهم والغير ذلك...

تسلل القلق إلى قلبي، فلا يجتمع ذئبان داخل قفص واحد...

فكما تعلمون أنا من يسيطر على مجاري الأمور هنا، بل وتمتد سيطرتي أيضًا إلى بعض منازل الأهل والأصدقاء ممن يعتمدون على آرائي اعتمادًا شبه كامل لتسيير أمور حياتهم، فما العمل الآن؟!

حاولت مجاراة الجلسة، ولكن كلما تعمق الحوار... كلما تغلغل شعور داخلي بالتوجس والقلق... أفقت من شرودي على صوت أمير وهو يقول بسعادة: هاتولنا العروسة يا أم العروسة.

انقبض قلبي لتلك الكلمة، ولكن لا مفر، فهم في منزلنا الآن... على الأقل عليَّ أن أُجاري الموقف حتى ينتهي اليوم، وبعدها لي حديث آخر مع كل من آلاء وأمير...

لأول مرة قمت من مجلسي وذهبت لأحضر آلاء من غرفتها، ومن موقفي هذا استغرب كل من أمير وأحمد وأنس، فثلاثتهم يعلمون أنني في كل مرة من المرتين السابقتين كنت أكتفي فقط بمناداتها حتى تأتي، مما أشعل بداخلهم رغبة في ثبر أغواري... قمت مسرعة بعد استئذان الضيوف، وعلى أثري قام أحمد، واجتمعنا نحن الثلاثة في غرفة آلاء ولكن في عجالة، قلت لهم مسرعة حتى لا يشعر أحد بما يجري: الست دي مش مريحة ومش سهلة، خدوا بالكم منها.

وأسرعنا أنا وآلاء في الخروج، بينما تعمدت أن أجعل أحمد يتأخر بضع دقائق حتى لا يثير موقفنا قلق أي أحد...

خرجت ومعي آلاء، وكالعادة سمعت عبارات مثل: "طما شاء الله... زي القمر... عرفت تنقي يا أبو حميد.

اتخذ كل منا مكانه وجلست لا يشغلني سوى دراسة سلوك السيدة أم محمد — على حد مناداتهم جميعًا — محاولة ألا ألفت الانتباه... وكالعادة بدأ والد محمد الحديث موجهًا الكلام إلى أمير: إحنا يشرفنا إننا نطلب إيد بنت حضرتك الآنسة آلاء لابني محمد، وأنا أحب أقول لحضرتك إن محمد عاقل جدًا، وهتستغرب لما تعرف إن إخواته الأصغر منه متجوزين ومخلّفين كمان، بس هو كان متحمل المسئولية كلها معايا، ومحبش يسيبني لوحدي لغاية لما شغلنا كبر ووصلنا للي إحنا عليه دلوقتي، وده طبعًا كلفه إنه ما يكملش تعليمه ويكتفي بدبلوم تجارة، وده طبعًا علشان يكون جنبي.

تغيرت تعبيرات وجهي، وكذلك خُيّل لي أن هذا ما حدث لأمير ولأبنائنا بعد تصريح والد محمد بأنه لم يُكمل تعليمه، فهو لا يحمل شهادة جامعية مثل آلاء...

لمح والد محمد تغيير ملامحنا، فأردف قائلًا: محمد شاب ذكي جدًا، وهو السبب في نجاح الشغل وتطويره كمان، أخلاقه عالية جدًا، وده مش كلام علشان ابني، بالعكس، حضرتك تقدر تسأل عليه أي حد في البلد، حضرتك عارف إننا بحكم شغلنا مشهورين جدًا الحمد لله.

قاطعه أمير محاولًا رفع الحرج عنه: أنا عارف يا أستاذ سيد، ربنا يحميه، ودي حاجة ما تعيبهوش، ده راجل وراجل محترم، كفاية إنه ما اتجوزش لغاية دلوقتي ووقف جنبك.

ظهر الارتياح على وجه كل من محمد ووالده بعد عبارة أمير الأخيرة، ولكن ظلت ملامح والدته جامدة تتفرسني هي الأخرى كما أفعل أنا... ألم أقل لكم لا يجتمع ذئبان داخل قفص واحد...

فاجأني والد محمد وهو يرفع يديه بعد أن اتفق هو وأمير على تفاصيل الزواج وهو يقول: "نقرا الفاتحة."

فاستجاب له أمير ورفع يديه، وتبادلت أنا وأحمد النظرات، ثم رفعت يدي بتثاقل لأقرأ الفاتحة معهم، ولكني أضمرت في نفسي أن لي معه حديثًا آخر بعد انصراف الضيوف.

وبالفعل ما كاد أمير يغلق الباب خلفهم بعد انتهاء اليوم حتى اندفعت نحوه، واجتمعنا جميعًا في ردهة المنزل لنتباحث أمر هذا العريس...

بدأت الكلام موجهة حديثي إلى آلاء وأنا أعقد يديَّ أمام صدري — فكانت هذه جلستي المفضلة خاصة إذا أردت استجواب أحد: "إيه رأيك يا عروسة؟"

أجابت وقد رأيت الخوف من رفضي يطل من عينيها، فهي قد قرأت اعتراضي على تحكم والدته غير المقبول لديَّ بالمرة، وهي تعلم ذلك جيدًا: "إيه يا ماما؟ ماله بس؟"

ردّدْتُ وأنا أضع قدمًا فوق الأخرى وأحرّكهما يمينًا ويسارًا: "يعني مش عارفة ماله؟ ماشي يا ستي، أقولك أنا ماله. أولًا: أمه ست مش مريحة بالمرة وشكلها متحكمة ومسيطرة، ومش هترتاحي معاها. ثانيًا: ده مش مكمل تعليمه، وانتي كلها سنة وهيبقى معاكي البكالوريوس، انتي هتقبلي بده؟ ثالثًا: الهدية اللي جابهالك هدية خفيفة، يعني شكلهم بخلا.. فاكرة تامر؟

و هنا انفجر أمير في صرامة مقاطعًا: تاني يا أمير؟ لو سمحتي ماتجيبيش سيرة الولد ده تاني، إحنا ما صدقنا البنت نسيته وبقت كويسة خلاص.

آثرتُ السلامة والتزمتُ الصمت، خاصة بعد أن عرفتُ أن لأمير وجهًا آخر لا يظهر إلا إذا كان الأمر متعلقًا بسلامة أحد أبنائنا، سواء النفسية أو الجسدية...

أنهيتُ حديثي بجملة واحدة: أنا قولت اللي عندي وانتو أحرار، أنا عارفة إنك ممكن توقفي أمّه عند حدّها وتقدري تتعاملي معاها، ولو حتكوني مبسوطة مبروك يا حبيبتي.

رأيتُ علامات الانفراجة ترتسم على ملامح آلاء، فهي تعلم تمامًا أنها قادرة على التعامل مع سيدة مثل هذه.. نعم، هي هادئة.. تبدو للوهلة الأولى كقطة صغيرة وديعة، ولكن مهلًا.. من قال إن القطط دائمًا وديعة؟! فهي على دراية ووعي كاملين بكيفية التعامل مع من هم على شاكلة تلك المدعوة أم محمد، فهي ابنتي في المقام الأول، وقد أسهبتُ في تعليمها أمور النساء حتى صارت خبيرة، وتعلم تمام

العلم كيف يكون كيد النساء، وكيف يصبح سلاحًا جبارًا فتاكًا في بعض الأحيان، فقد أصبح لديها ما يكفي من الخبرة لاستخدامه بمهارة...

مهارة شديدة...

انشغلت قليلًا بتركيزي عن أحمد، فهو وضع طبيعي لأنني أقوم بتجهيز أخته واضعةً في اعتباري كل شروط الجهاز التي طلبتها أم محمد، أضف إلى ذلك رؤيتي في أنه لابد من ظهورنا بمظهر مشرف أمام محمد وأهله، كما أنه يجب ألا تقل ابنتي شيئًا عن بقية زوجات إخوته الآخرين، ولكنني وجدته يدلف إلى حجرتي يومًا من الأيام وهو يغمغم مبتسمًا: ماما، فاضية شوية؟ عايز أتكلم معاكي.

تركتُ ما بيدي وتوجهتُ له بكل تركيزي: تعالى يا حبيبي، عايز إيه؟

أجاب بنبرة غير مفهومة: أنا اتعرّفت على واحدة زميلتي في الشغل، محترمة وكويسة، وكنت عايز أعرفك عليها.

لا أستطيع أن أصف شعوري في تلك اللحظة.. مزيج من المشاعر اعتراني.. في البداية انقبض قلبي.. مرة ثانية.. سوف تأخذه مني واحدة.. تحتل قلبه ويفضلها عليّ.. اللعنة على ذلك، ولكنها سنة الحياة.. فلابد له أن يتزوج وينجب، ولكنني هدّأتُ من روع نفسي مرددة: ولكنّي سأظل أنا حبه الأول والأخير، لن يصل لمكانتي أحد أيًّا كان. وجدتُ شعورًا آخر بدأ يزحزح شعور الرعب هذا الذي اجتاحني.. لا أنكر أن هناك فرحة بسيطة تسللت إليّ كطبيعة أي أم تفرح لأبنائها.

لاحظ من تعبيرات وجهي ما يجيش به دري، فبادر قائلًا: بصراحة يا ماما، أنا ما حبيتهاش، بس لقيتها بنت طموحة زيي، وأنا عايز اللي أتجوزها تكون بمثابة شريك نجاح، نأسس أنا وهي كيان واحد ناجح.

للمرة الثانية لم أستطع تحديد الشعور الذي غزاني.. أم هي مجموعة أخرى من المشاعر إذا أردنا الدقة؛ فللوهلة الأولى دخل الاطمئنان إلى قلبي فور سماعي جملة بصراحة يا ماما أنا ما حبيتهاش، ولكنني شعرتُ بالغرابة من وجهة نظره في الزواج، فرددت عليه ببطء محاولة استيعاب فلسفته:

هي دي جوازة ولا شغل يا أحمد؟! إيه اللي إنتَ بتقوله ده؟! في حد يتجوز كده؟! أنا معاك إنك مش لازم تكون بتحبها، ومعاك إنك ممكن تتجوز لو في مصلحة، بس مش لدرجة إنك تقولي هتجوز واحدة علشان إحنا طموحين وشايف إننا هنأسس كيان ناجح! الجواز عمره ما كان كده يا حبيبي. وبعدين إنتَ بتقول إنها بتشتغل وطموحة، يعني عايزة تركز في شغلها، واللي زي دي يا ابني ما تعرفش تفتح بيت وتكون ست بيت وتديره صح.

أجاب مسرعًا: ما حضرتك بتشتغلي يا ماما وكنتي عارفة توفقي بين شغلك وبين بيتك، ولغاية النهارده عرفتي تعملي ده.

ألجمني رده فلم أستطع أن أتفوّه ببنت شفة.

قام مسرعًا من أمامي قائلًا: عموما أنا هعزمها هي ووالدتها في خطوبة آلاء. كويس إنها هتكون في قاعة المرة دي عشان أعرف أعزم براحتي، وابقي شوفيها حضرتك وقوليلي رأيك.

قالها منهيًا الحديث وانصرف من أمامي تاركًا إياي في حالة من الذهول بسبب غرابة تفكيره، ولكن ظلت تتردد في رأسي عبارة: أنا ما حبيتهاش يا ماما، كما لو كنت أحاول تعداد مزايا الزيجة.

فهو لم يحبها...

ولن يفعل...

لن يفعل مطلقًا...

عدتُ للإعداد لحفل الخطوبة المنتظر، فالحفل هذه المرة مختلف، سوف يقام في قاعة، مما يستلزم أشياء مختلفة في التجهيز، مثل اختيار ثوب العروس والاتفاق مع مصففة شعر وماكييرة محترفة كي تزين آلاء في مثل هذا اليوم المميز، وما يتوجب عليّ وعلى أبيها وإخوتها ارتداؤه، وغيرها من التفاصيل التي كانت تشغل وقتنا كله، بل وتلتهمه التهامًا...

جاء يوم حفل الخطوبة وكنا جميعًا سعداء، العروس تبدو في أجمل حالاتها وكذلك العريس، الفرحة تسيطر على الأجواء، وفجأة أثناء الحفل وبعد انتهائي من الترحيب بالمدعوين جلستُ لأستريح قليلًا ولألتقط أنفاسي التي تهدجت جراء المجهود المبذول، وإذا بي أجد أحمد يسير باتجاهي تجاوره سيدة طويلة، بل هي أطول منه كثيرًا إذا أردنا الدقة، عريضة المنكبين، لا أعلم من هي. ظننتها إحدى أقرباء محمد جاءت لتحيتي ولتقديم التبريكات والتهاني للعروسين، ولكنني صُعقت عندما شرع في تقديمها لي بابتسامة عريضة: أعرفك يا ماما

على هالة اللي حكيتلك عنها، ثم صمت لبرهة وأضاف بلهجة تحمل في طياتها الحسم والتحدي معًا: اللي هخطبها بإذن الله.

لم أستطع الرد وكأني فقدت النطق لثوانٍ، واكتفيتُ بهزّ رأسي بابتسامة باهتة لا تخلو من الذهول، مغمغمة بعبارات غير مفهومة.

رأى بعينيه صدمتي جلية على وجهي، وبالطبع رأتها هالة، فصدر عنها أغرب سلوك قد تقدم عليه فتاة في مثل موقفها؛ وجدتها تتأبط ذراعه وتجذبه ثم ذهبت به مسرعة نحو طاولة تعمدتُ أن أمدّ بصري لأرى من يجلس عليها، فوجدت امرأة عجوز غير مهندمة المظهر على الإطلاق تجلس، وقد جاورها كل من أحمد وهالة. فهمت على الفور أنها أمها، وهنا تضاعفت صدمتي.

جاهدتُ بكل ما أوتيتُ من قوة كي لا أفسد ليلة ابنتي، وحتى لا يشعر أحد بما يحدث، ولكنني وجدتُ ساقَيَّ تقودانني إلى حيث يقف أمير والبهجة تتراقص في عينيه، ولم أجد نفسي إلا وأنا أهمس في أذنه باقتضاب مصحوب بذهول: الحق ابنك.

انتفض جرّاء كلمتي وانسحب من وسط الحضور واتخذنا طريقنا إلى خارج القاعة حتى يتسنّى لنا الحديث على انفراد.

سارعني قائلاً: في إيه يا منى؟ إيه اللي حصل؟ مالهم العيال؟

أجبته وما زالت علامات الصدمة مرتسمة بوضوح على وجهي: أحمد جايب واحدة شكلها قِدّي وبيقول إنه هيخطبها، والبت

بمنتهى البجاحة مسكت إيده وسحبته من قدّامي كأنها بتقولي اخبطي دماغك في الحيطة.

تعجب لقولي ورد مغمغمًا: معقولة؟! هي فين دي؟ تعالي وريهالي.

استحببته إلى حيث يجلسون، وكانوا قد اعتمدوا الانزواء في طاولة في طرف القاعة المقابل لمكان طاولتنا حتى لا يلتفت إليهم أحد، ولكني وجدتُ أمير ذاهبًا إلى حيث يجلسون وقد قادته قدماه إلى مكانهم وكأنهما يعرفان الطريق مسبقًا، ويصحبانه سريعًا كي يحاول منع وقوع تلك الكارثة قبل أن تحدث.

وجدتُ أمير يسحب مقعدًا من على الطاولة وهو يقتحم خلوتهم قائلاً: مش تعرّفنا على ضيوفك يا أحمد؟

واندهشنا أنا وأمير عندما وجدنا تلك الحيّة الرقطاء تميل على ذراع أحمد ممسكة بيده وكأنها تعلن أن وجودها معنا أصبح أمراً واقعاً علينا جميعًا أن نتقبله، في حين سحب أحمد يده من يدها بسرعة وكأنما ردّ إليه ظهور والده عقله مرة أخرى.

تعمد أمير تجاهل ما رآه وسأل بشيء من الاستفزاز والذي راق إلي كثيرًا: مش تعرّفنا يا حمادة على المدام والحاجة، قرايبنا دول؟

تلعثم أحمد، في حين كادت هالة تنفجر من الغضب واحمرّت وجنتاها حتى خُيّل إليّ أن هناك دخاناً يتصاعد منهما بعد سماع لفظ مدام من أمير.

همّ أحمد أن يجيب، ولكنها قاطعته وهي تضغط على حروف كلامها: أنا هالة... الآنسة هالة يا عمي، زميلة أحمد في الشغل.

هزّ أمير رأسه وردّ عليها: أهلاً يا بنتي.

والتفت إلى أحمد موجهاً حديثه إليه بحزم فهمه أحمد على الفور قائلاً: اتصورت مع أختك يا أحمد؟

فأجاب أحمد محاولاً استعادة رباطة جأشه: لا لسه يا بابا.

أتت لهجة أمير آمرة وهو يقول لأحمد: طيب قوم بسرعة اتصور مع أختك وعريسها، وخليك حواليها، ما يصحش نقعد كده والناس بترقص هناك.

ثم وجّه إليّ حديثه قائلاً: يلا يا منى، قومي اقفي مع بنتك.

هممنا بالتحرك ليتكرر مرة ثانية ما حدث، حيث وجدنا تلك المتطفلة تصحبنا داخل القاعة محاولة أن تتأبط ذراع أحمد للمرة الثانية، ولكن نظرًا لوجود والده سحب أحمد يده منها في هدوء مقدماً إياها كي تسير أمامه، وبمنتهى التبجح نظرت إليّ نظرة تعني: انظري، يقدمني أمامه لأنه يخشى عليّ من الزحام...

تبادلتُ نظرات الاندهاش أنا وأمير، وزادت دهشتنا حين وجدنا والدتها تصحبنا إلى حيث يجلس العروسان، ولم يكتفيا بذلك بل وقفا بجانبهما وتعمدا التقاط بعض الصور، ولا سيما تلك الصور التي التُقطت لأحمد وسط نظرات ذهول ودهشة أصابتنا جميعًا بما فينا أحمد... مستغلين عامل الزحام وبأننا لن نقدر أيٌّ منا أن يتفوه

بأي كلمة أمام هذا الجمع الغفير من الحضور من عائلتي العروس والعريس.

التزمنا الصمت وشرعنا في قضاء ليلتنا حتى انتهت على خير ما يرام، وعدنا إلى المنزل، ولكننا كنا جميعًا منهكين فذهبنا جميعاً لنخلد إلى النوم مع وعد أمير لأحمد بأن الحديث لم يبدأ بعد...

كان هذا يعني بأن الصباح سوف يأتي وهو يحمل لنا الكثير والكثير...

وبالفعل، في صباح اليوم التالي اتخذنا جميعاً مقاعدنا على الطاولة لتناول وجبة الإفطار كما اعتدنا دائمًا، ولكن اليوم كانت تسيطر علينا جميعًا مشاعر الترقب والقلق، وكأن كلاً منا ينتظر من الآخر أن يهمّ بفتح الحديث... حتى قطع أمير تلك الحيرة موجهاً حديثه إلى آلاء: مبروك يا عروسة، كان يوم جميل يا ست البنات، عقبال الليلة الكبيرة، وعقبال إخواتك كمان لما يشدّوا حيلهم ويختاروا بنات حلوين زيك كده ويخطبوهم.

لاحظتُ القلق على وجه أحمد، ولكن أمير باغته بتغيير دفة الحديث إليه فجأة قائلاً بسخرية متعمدة: صحيح، مين الست البجحة دي اللي كنت قاعد معاها امبارح؟ ومالها شبطانة فيك كده ليه؟

أجاب أحمد متوتّرًا وهو يبتلع ما في فمه من طعام: دي هالة زميلتي في الشغل يا بابا، وبعد إذن حضرتك أنا عايز أتقدملها، هي بنت ناس طيبين و...

قاطعه أمير وهو يحاول السيطرة على أعصابه وما زال محتفظًا بتلك النبرة الساخرة: دي شكلها أكبر منك بكتير يا ابني، انتَ عايز تقنعني إنك أكبر منها؟! وبعدين هو يصح إنها تمسك إيدك وتمشي قدّام الناس كلها متعلقة في دراعك كده ولسه مفيش أي حاجة رسمي بينكم؟ دي فاجئتني أنا وأمك شخصيًا.

ازدرد أحمد لعابه ولم يستطع الدفاع عنها، فما فعلته كان غريباً بحق.

فتابع أمير قائلاً: شايف أختك؟ مؤدبة ومتربية ومتدينة وجميلة وشكلها حلو. إيه اللي يمنع إنك تتجوز واحدة زي أختك؟ يا ابني الست بيبان عليها الكِبَر أسرع من الراجل بسبب الحمل والولادة، إلا من رحم ربي طبعاً. ده غير تصرفاتها الغريبة وإصرارها على إنها تمسك إيدك بدون وجه حق. سيدنا النبي [ص] قال: "تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تَرِبَت يداك". صدق رسول الله [ص]. وأنا يا ابني مش شايف جمال، سامحني، ولا دين—والله أعلم، ده بينها وبين ربنا—وما أعرفش حسب ولا مال، بس البداية مش مبشرة وماحدش فينا ارتاحلها.

وهنا ظهر تأييدنا جميعاً لكلام أمير والذي يبدو أنه جاء موافقاً لهوانا جميعاً، إلا أحمد الذي اعترض قائلاً: يا بابا، أنا ليا فلسفة تانية خالص في الجواز. هالة إنسانة طموحة، وأنا ناجح وطموح. كل همّي إني ألاقي شريك عمل ناجح ونأسس كيان كبير نكبره وننجحه مع بعض.

تعجبنا جميعاً لغرابة تفكيره وسرت همهمات معترضة منا جميعاً، حتى قال أمير بحدة: الكلام ده لما تيجي تأسس شركة، مش وإنت بتتجوز.

وهنا لم أستطع التزام الصمت أكثر من ذلك فانفجرت قائلة: إزاي هي حتقدر تفتح بيت وتتحمل مسؤوليته وهي مركزة في شغلها أوي كده؟ ومن كلامك واضح إنها مبتقعدش في البيت قد ما بتقعد في الشغل. حتى لو قدرت في الأول، إنتَ هتزهق وهتتعب معاها ومش هتستحمل.

هزَّ رأسه معترضًا على كلامنا جميعًا: معلش يا جماعة كلامكم على عيني وعلى راسي بس دي حياتي وسيبوني أرتِّبها زي ما أنا بحلم بعد إذنكم.

طرق أمير برتابة بسبابته على الطاولة ثم تنهّد قائلًا: شوف يا ابني، إحنا نصحناك وإنتَ حر، طول عمرك دماغك ناشفة في كل حاجة حتى في شغلك. بعد ما جت لك وظيفة ثابتة بمرتب محترم استقلت منها واشتغلت في العمل الحر، وكلنا اتضايقنا بس دي حياتك وإنتَ حر فيها واتحمَّل تبعات قرارك ده.

صُدمتُ من كلام أمير، فقد كنت موقنة بقرارة نفسي أنه هو الوحيد الذي يستطيع أن يثنيه عن قراره، ولكن تبددت آمالي بعد أن سمعتُ جملته الأخيرة تلك.

وفي نفس اليوم أتى محمد خطيب آلاء لزيارتها ولكي يستأذن في أن يصطحبها لتناول الغداء، فوجدتُ أحمد يسبقنا في استقباله ويبادِره

بفتح الموضوع "هالة" – كما أطلقنا عليه – معه، فجاءه رد محمد هادئًا: أنا ما شوفتهاش والله يا أحمد، إنتَ عارف ما خدتش بالي، الدنيا كانت زحمة امبارح وأنا ما كنتش مركز. لو تحب أعزمها ونخرج كلنا مع بعض، ولا هي مش حتوافق لإن الموقف حساس وحتتكسف تخرج معانا بصفة غير رسمية؟

أجابه أحمد: مش عارف بصراحة، أنا هعرض عليها الفكرة، بس افرض إنها موافقتش.

أجابه محمد بمنتهى الهدوء: مافيش مشكلة يا سيدي، أجي أزورك في الشغل نسيبي بقى.

ثم تبادلوا المزاح مع بعضهم البعض، وأغلقوا الموضوع على ذلك...

بعد عدة أيام مرت بتوتر وتوجس من الجميع، حيث أصبح هذان الشعوران ضيفين ثقيلين جدًا على منزلنا ولا يريدان الخروج منه، كأن الحال أعجبهما فقرّرا البقاء معنا إلى الأبد، وجدتُ أحمد وآلاء يستأذنان أمير في الخروج مع محمد وتمضية اليوم بالكامل في الخارج.

تدخلتُ في الحديث قائلة بخبث: وإنتَ نازل معاهم ليه؟

أجاب بهدوء: أنا اتفقت مع محمد إنه يشوف هالة ويقولي رأيه، وعزمتها إنها تقضي يوم معانا وهي وافقت.

أطرقتُ برأسي وانصرفتُ من أمامه، فأنا أعلم جيدًا أنه لن يقدِر على أن يزحزحه عن قراره أحد، فتلك هي صنيعتي، أنا من علَّمته هذا

وتعمدت غرسه فيه منذ صغره؛ قوة الشخصية والثبات على الرأي. فعلتها حين تصورت أن قراراته جميعها سوف تأتي موافقة لرغباتي، صممته على أن يكون آلة لدعمي، ولكن وكأن القدر أراد أن يسقيني فعلتي كنتُ أنا أول ضحاياه.

تركتهم وأنا في قمة كسرَتي، وسمعتهم يتفقون مع أمير على موعد العودة. وعندما خرجوا ذهبتُ إلى أمير قائلة: إنتَ هتسيبه يخطبها فعلًا؟

أجاب: إحنا كلنا مش موافقين، وأنا عارف كمان إن محمد مش هيقوله اللي نفسه يسمعه عليها، بس ابنك دماغه ناشفة وهيتجوزها.

هبطتْ كلماته على رأسي كالصاعقة.. هل ممكن أن يفعل بي أحمد هكذا؟ أنا أعلم أنه لا يحبها، وهذا هو عزائي الوحيد، أن أكون أنا الوحيدة في قلبه. ولكن إذا أراد الزواج فليتزوج من واحدة على الأقل أستطيع أن أتعامل معها، أسيطر عليها كما كنتُ آمل، أستطيع عن طريقها أن أوسِّع حدود إمبراطوريتي.

ولكن هذه الفتاة يبدو وكأنها دخلت معي في تحدٍّ مسبق، وكأنها تعلم مدى العلاقة بيني وبين أحمد، وكيف أننا شديدا التعلق ببعضنا البعض، وكأنها تحاول أن تثبت للجميع وله بأن علاقتي به علاقة واهية، تستطيع أي امرأة غيري أن تعوضه عني.

كاد رأسي أن ينفجر، وجميع الاحتمالات تدور به وتعصف بذهني كعاصفة ثلجية في أشد ليالي الشتاء برودة بأقصى بقاع الأرض.

شعرتُ بآلام مبرحة تجتاحني، لا أعلم سببها، ولم أفهم – أو لم أنتبه – لعلامات الإعياء تلك التي بدأت تظهر عليّ منذ فترة، وربما لاحظتها ولكن تجاهلتها عمدًا، ولا أحد يسألني عن السبب... علَّه خوفي من أن تتكرر مأساة والدتي، فكما تعلمون هذه النوعية من الأمراض تلعب الوراثة فيها الدور الأكبر، ولكن ليس لدي أغلى من صحتي، وهنا قررتُ أن أتوجه في اليوم التالي لأخضع لبعض الفحوص الطبية حتى لا أتعَلَّل أكثر من ذلك...

غمستُ نفسي في القيام ببعض الأعمال المنزلية محاولة أن أسيطر على كمّ الأفكار والمشاعر التي تجوب رأسي، بعضها عن موقف أحمد من هالة وتلك الزيجة الملعونة، والبعض الآخر عن سبب الإعياء الذي داهمني فجأة.

حتى سمعتُ صوت مفتاح يُدسُّ في باب المنزل يصاحبه أصوات بعض الضحكات، ففهمتُ أن أحمد وآلاء عادوا، إلا أنني سمعت صوتًا آخر معهم، ووجدتُ أحمد يتقدم مسرعًا ويبلغني أنا وأمير أن محمد يستأذن في الدخول.

أسرعتُ إليه مرحِّبة: اتفضل يا حبيبي، ده بيتك، أهلًا وسهلًا.

دلف محمد إلى المنزل معتذرًا: أنا آسف إني دخلت من غير ما أستأذن، بس كنت عايز حضرتك وعمي أمير في موضوع.

ارتعدت فرائصي بعد جملته وخفتُ أن يكون قد حدث مكروه بينه وبين آلاء، فناديتُ أمير واتجهنا جميعًا إلى غرفة الصالون، وقد بادره أمير قائلًا: خير يا حبيبي، إيه اللي حصل؟

أجابه محمد على استحياء مختلسًا النظر إلى أحمد ثم قال في هدوء: أحمد كان عايز رأيي بخصوص ارتباطه بهالة، وأنا قولتهوله بعد ما شوفتها وقضينا اليوم كلنا مع بعض، لكن أنا صممت أجي وأتكلم معاكم يمكن نوصل لحل وسط، علشان أنا بلغني إنكم مش موافقين.

أثناء حديث محمد توجهتُ بنظري إلى أحمد الذي وجدته مطأطئ الرأس، وتبدو على وجهه علامات التفكير العميق.

سألتُ محمد بلهفة لم تخفَ على أحد: وإيه رأيك؟

حرّك محمد رأسه بقوة كعلامة على الرفض قائلًا: ما تنفعش خالص شكلًا وموضوعًا. ثم سكت برهة ازدرَدَ فيها لعابه والتقط أنفاسه ثم أردف: أنا قولتله: إن سرقت اسرق جمل، وإن عشقت أعشق قمر. وأنا بصراحة مش مقتنع، بس هو قالّي كلام كده عن شراكة أنا بصراحة ما اقتنعتش بيه، وضربتله مثال بعلاقتي بآلاء، وقلتله: شوف واحدة مناسبة زي أختك. بس هو ما اقتنعش.

أطرقتُ برأسي، وعلى حين هزَّ أمير رأسه متفهمًا ثم وجّه الحديث إلى محمد وعينه على أحمد: أنا قولتله نفس الكلام.

ثم حوَّل الحديث إلى أحمد الذي ما زال يجلس على نفس وضعه: بُص يا ابني، ما حدش فينا موافق، وده مش علشان إحنا ضدك، بالعكس إحنا كلنا عايزين مصلحتك، بس إنتَ حُر وافتكر إن ما حدش فينا كان موافقك على قرارك ده.

بعد انتهاء الحديث استأذن محمد في الانصراف في نفس اللحظة التي قررتُ فيها أن أستخدم سلاحي المعهود مع أحمد... الصمتَ العقابي.

تحاشيته، تجنبتُ مخالطته، حتى على مائدة الطعام لم أعد أشاركهم إياها، وانضم إليهِ أخوته الاثنان تضامنًا معي، والغريب أن أحمد ولأول مرة لم يهتم، بل وجدته يسير بخطى جادة نحو زواجه حتى وجدتُ نفسي مُرغمة على الانصياع له، وكتمت حزني بداخلي.

في تلك الأثناء ازداد اعتلالي حتى أصبح ملفتًا لانتباه جميع من في المنزل، وقررتُ الذهاب إلى الطبيب راجية أن ينشغل أحمد معي ويبتعد عن هالة... وبالفعل توجهتُ إلى الطبيب الذي لم يكن يستبشر بأي خير في كشفه المبدئي، وطلب مني إجراء بعض الفحوصات والتحاليل التي سوف يبني عليها تشخيصه النهائي. كنت أعلم منذ البداية حقيقة ما أَلَمَّ بي لكني لم أبح به حتى جاءت النتائج، وكان تشخيص الطبيب تأكيدًا على ما ضمرته... نعم، إنه هو... المرض اللعين الذي أودى بحياة أمي.

وكان أمر الطبيب أن نبدأ العلاج فورًا، فالكشف المبكر له عامل كبير في الشفاء، وهو ما حمد الله عليه الطبيب أن اكتشاف المرض جاء مبكرًا.

خيم الحزن على الجميع، حتى أحمد حمل نفسه وِزر مرضي، ولن أخفيكم سرًا حاولت استغلال مرضي كسلاح ضد أحمد حتى يعود إلى رشده ويعزف عن تلك الزيجة المشؤومة التي لاحت بشائرها في

الأفق، ولكن إصراره كان غريبًا كما لو كان سيجني من وراء تلك الزيجة مال قارون.

مرت الأيام وأنا أتلقى العلاج كما أجريت بعض العمليات الجراحية حتى استقرت حالتي، وهنا وجد أحمد أن الفرصة قد حانت لإقامة حفل الخطوبة، خاصة بعد الإلحاح الذي وجدته من هالة التي كانت تتعمد زيارتي في المنزل كما كانت تتعمد أن تؤكد لي على شيء واحد: أنا أمرٌ واقع في حياتكم.

ذهبنا رغمًا عنا جميعًا إلى منزل أهلها، والذي كان منزلًا شديد البساطة في منطقة بائسة تشتهر بوجود أعمال عنف وبلطجة، وهنا كانت صدمتنا الثانية، ولكن لا مفر، فهو مصرّ رغم كل شيء على إتمام زواجه منها.

ولكن ما صدمنا حقًا أن والدتها كانت هي المتصرفة الوحيدة في جميع شؤون المنزل، والدها كان فقط مجرد سد خانة؛ الأم هي من تحدثت في تفاصيل الزواج، هي من قررت مدة الخطوبة، هي كل شيء، حتى إن أمير أصبح يوجه حديثه لها لا لزوجها.

انتهت الجلسة، ومرت الأيام، ووجدنا أحمد يدعونا كالغرباء إلى حفل خطوبته في موعد لم نعلمه سوى قبل الحفل بأسبوع، وكما أرادنا غرباء كنا كذلك؛ ذهبنا وحضرنا الحفل تمامًا كما أراد هو وعروسه، والتي بدأت تنتهج معه نفس نهج والدتها؛ فهي من يخطط وليس عليه هو سوى التنفيذ.

كنت أشغل نفسي وأولي تركيزي كله لآلاء حيث بدأنا في تجهيز منزلها بعد أن ابتاعه محمد، وانهمكنا في إعداده وشراء جميع مستلزماته بالمشاركة مع محمد وأهله حتى أصبح المنزل جاهزًا لا ينقصه سوى أن يُعمَر بابنتي وزوجها. وبعد أن انتهينا، وقبل أن نحدد موعد الزواج ببضعة أيام، فوجئنا بأحمد يخبرنا بموعد زفافه الذي كان قد حدده سلفًا مع هالة، حيث يعيشان في عالمٍ موازٍ لا يوجد فيه غيرهما ولا يُنفَّذ فيه كلامٌ سوى كلامها دون النظر أو الاعتبار لأي مخلوق كان.

وعندما حاولت سؤاله: مش تاخد رأينا يا ابني؟

أجاب بهدوء: إحنا جهزنا كل حاجة يا ماما، حضرتِك اديتِ لنا الشقة اللي ورثتيها من جدي رحمه الله عليه مؤقتًا لغاية لما أستلم شقتي، وأنا وهالة فرشناها وخلصناها، يبقى إيه اللي ناقص؟ إنتو مش مطلوب منكم أي حاجة خالص غير إنكم تيجوا تحضروا الفرح وتتصوروا صورتين وخلاص.

بعد الاستماع إلى كلماته لم أشعر أنني بحاجة إلى بذل المزيد من المجهود معه في أي حديث، فهذا ليس أحمد ابني الذي أعرفه؛ لقد نجحت تلك الأفعى في تغييره مستغلة في ذلك شغفه وطموحه اللذين ورثهما عني.

حرَّكت رأسي بلا معنى وانصرفت من أمامه بلا وجهة معينة، كل ما أردته هو فقط الانصراف.

وفي يوم عُرسه ارتدينا جميعًا ملابس مبهجة كما لو كنا سعداء، ورسمنا على وجوهنا ابتسامات مزيفة، حتى أحمد نفسه لم أجد في

عينيه بريق الفرحة؛ كل ما وجدته هو نظرة ذهول وخوف وترقب من المجهول، حتى عندما ذهب لإلقاء النظرة الأولى على عروسه وجدته يتحامل على نفسه ويجاهد لرسم ابتسامة زائفة حتى لا يشعر أحد من الحضور أو يرى في عينيه نظرة عدم الاقتناع بما يحدث.

انتهت أحداث تلك الليلة والتي لم يشعر فيها أحد بالسعادة سوى العروس ووالديها.

وفي اليوم التالي كان موعدنا مع الحصاد الأول لتلك الزيجة؛ فها هي المشاكل قد بدأت، ففي الصباح الباكر وجدت أحمد يهاتفني بلهفة كما لو كان غائبًا عن المنزل منذ أشهر طوال، وصوته يحمل مزيجًا من اللهفة والعصبية.

سألته عن السبب، لم يراوغني وكأنه يشكو لي ما حدث وكأنه عثر على مبتغاه في أن يجد أحدًا يستمع له، قائلًا: الست الفظة أم هالة، جت من بدري وعمالة تزعق، وعملت مشكلة علشان تشوف بنتها وكإني خاطفها.

أجبته ببرود متصنع: وإنت منعتها من إنها تشوف بنتها؟

أجاب بسرعة: أبدًا والله يا ماما، هي اللي ست غريبة جدًا وداخلة تزعق بدون سبب، هالة نفسها استغربت منها.

أجبته بنفس البرود: معلش يا حبيبي.

أجاب وقد فهم ما أرمي إليه وهو مبدأ اللي بيشيل قِربة مقطوعة، فأنهى حديثه بسرعة وأغلق الهاتف.

وضعت السماعة وبداخلي ألم ومرارة لا حد لهما؛ فقد بدأت نبوءاتنا جميعًا تتحقق، ولكني أخذت عهدًا على نفسي ألّا أنغمس في مشكلاته أكثر من اللازم، فهو ليس صغيرًا على أن يتحمل تبعات أي قرار يتخذه. وأنا أيضًا لابد أن أساعد نفسي كي أمر من أزمتي الصحية تلك بسلام، كما أن لدي ولدًا وبنتًا آخرين ما زالا بحاجة إليّ، وإن كان أحمد قد خرج من ركبي فأنا أعلم جيدًا أنه لن يحتمل وسرعان ما سوف يعود ويلحق به.

مرت أشهر قليلة لم يخلُ يوم فيها من شكوى أحمد وكانت تتزايد كل يوم أكثر مما سبقه، وكثيرًا ما كنت أنفعل وأثور وأتوعدها؛ لم أستطع التحكم في نفسي، إنها تؤذي أغلى ممتلكاتي، لا سيما عندما كنت أرى أحمد يأتي لزيارتنا وهو رثّ الهيئة، متسخ الثياب، وهو المعتاد على النظافة ومنمّق جدًا، حتى أصبحت العلاقة بيني وبينها صراعًا دائمًا، ومما زاد الأمر سوءًا علمي بحملها بعد الزواج مباشرة، مما أدى إلى زيادة ارتباطه بها، وأصبح الصراع دائم الاشتعال.

في هذه الأثناء عمدنا إلى تجهيز حفل زفاف آلاء المؤجل بسبب زواج أحمد.

أصبح كل شيء جاهزًا، وفي يوم العرس طلت آلاء بالأبيض وكانت طلتها جميلة بحق، مما أثار حقد هالة التي صدمنا جميعًا مما ترتدي من ثوب لا يتناسب مع حجمها، خاصة وهي في حالتها كحامل،

ولكنها أصرت على ارتدائه. كذلك صُدمت من شكل أحمد وثيابه الرثة غير المرتبة بالمرة التي كان يعتمدها.

أزحتُ عيني عنهما كي لا أفسد على نفسي اليوم، وتعمدت ألا أجالسهم كثيرًا حتى لا أصاب بالغضب، إلى أن مر اليوم بسلام.

تعاقبت الأشهر حتى وضعت طفلتها الأولى والتي رأى فيها أحمد متنفسًا له، فقد أصبحت هي الأمل الذي يحيا بسببه، وكلما كانت تمر الأيام كانت المشاكل تتعقد وتكثر أكثر، حتى أصبح أحمد وابنته آية شبه مقيمين في منزلي.

وجاء دور أنس في الزواج، وكان قد تعرّف على زميلة له في الجامعة في نفس عمره تقريبًا، من عائلة ميسورة الحال جدًا، توفّي والدها وهي صغيرة، وعاشت مع والدتها وهي سيدة فاضلة حياة هادئة مرفّهة. وبالفعل خطبها أنس، واتفقنا على أن يتم الزواج بعد عامين من الخطوبة. كان كل شيء يسير مع أنس وآلاء سلسًا وسهلًا، على عكس حياة أحمد التي أصبحت سبب إزعاج وأرق للعائلة بأكملها. مرّ عام رزقت فيه آلاء بطفلة جميلة أسمتها إيمان، وحملت فيه هالة للمرة الثانية للأسف الشديد، حيث كان كل همّها أن تكبّله بأطفال لا يستطيع معهم الابتعاد عنها، على الرغم من أنها غير قادرة على إدارة بيتها أو الاهتمام بابني أو بابنتها، بل كان شغلها الشاغل هو النجاح في عملها والتدرج في سلّم الترقيات والوصول إلى أعلى المناصب دون أن تضع في اعتبارها مطلقًا حياتها الشخصية، والتي كانت أشبه ببركان يبحث عن أي فرصة للانفجار...

عشر سنوات مرّت، عشر سنوات تزوّج أنس ورُزق بطفلتين سلمى وليلى، ورُزقت فيهما آلاء بنادر أتاها بعد إيمان بعامين تقريبًا، وكبّلت فيها هالة أحمد بثلاثة من الأبناء: ولدان وبنتًا. صاحب ذلك نجاحٌ مبهِر لأحمد في العمل، حيث أصبح رجل أعمال في سن صغيرة جدًا، إذ وضع همّه كله في عمله تاركًا خلفه رفاهية الحياة الزوجية المستقرة السعيدة... كم كان يشعر بالحسرة كلما رأى إخوته في التجمعات العائلية مصطحبين أسرهم الصغيرة، وهو يعيش على صفيح ساخن... أمّا أنا فقد مَنَّ الله عليَّ بالشفاء بعد أعوام من العلاج القاسي... كما أنني وأمير تقاعدنا، وأصبحت متفرغة لشيء واحد فقط وهو طلاق أحمد وهالة...

نعم... تلك الزيجة التي كُتب عليها الفشل قبل أن تبدأ، والتي لم يوافق عليها أحد. أعلم أنني قد أكون السبب في الكثير من المشكلات التي اشتعلت بينهم، خاصة عندما كنت أتعمد دعوة أحمد على الغداء كل يوم بعد الانتهاء من عمله، لا سيما وقد كان محل عمله قريبًا جدًا من مكان سكني، كما أنني كنت أتعمد إثارة غيرتها وإيصال فكرة أهميتي التي لا تضاهيها أهمية في حياة أحمد حتى ولو كانت تلك الأهمية لزوجته نفسها... كم كان يرضيني ويثلج صدري نظراتها المشتعلة إليّ، وكم كانت تسعدني تلك الجملة التي كانت ترددها دائمًا على مسامع أحمد عند كل مشكلة: (إنت بتحب أمك أكتر مني)... كنت أنتشي وأنا أستمع إلى تلك الجملة منها، فقد كان

لوقعها على نفسي وقع السُّكر على مدمن، وتطرب لها أذني أكثر من أغنية عاطفية للسيدة أم كلثوم...

والآن حان دوري...

الآن جاء وقتي...

فإن كنت قد تركتها تتزوج ابني عن غير رضا مني، فالآن حان وقت تصحيح المسار وعودة الابن الضال...

ازدادت دعواتي لأحمد – الذي عرف قيمتي وقدّرني حق قدري – إلى منزلي متحججة بتعبي الدائم وخوفي من أن يرتد إليّ ذلك المرض اللعين، فأصبحت ملازمة لكلمة: (أنا تعبانة) لم تغادر فمي، وليس هذا مع أحمد فقط بل مع الجميع، مما جعل أحدًا منهم لا يعصاني حتى ولو على حساب بيته وأهله... المهم أنا.. أنا فقط...

تحكمت في الجميع، جعلت الجميع تحت أمري، بما فيهم أم زوجة أنس، فقد أحسنت استغلال عدم وجود زوج لها أحسن استغلال، بالترغيب تارة وبالترهيب والتهديد تارات أخرى... فبحكم عشرتي لها درست شخصيتها بصورة مكنتني من معرفة نقاط ضعفها، حيث كان كل ما يؤرقها هو أن يحدث شيء يعكر صفو زواج ابنتها ويؤدي إلى طلاقها، فتترك وحيدة في الدنيا بعد وفاتها برفقة ابنتيها، لا عائل لهم، وهذه كانت النقطة التي ألوّح بها دائمًا، مما جعلها تبذل كل ما تملك في سبيل إرضائي حتى لا أتسبب في طلاق ابنتها... يا له من شعور... أخيرًا إمبراطوريتي اكتملت، وسيطرتي امتدت، لم يعكر

صفوي سوى وجود تلك الحية الرقطاء هالة، ولن يهدأ لي بال حتى أتخلص منها وأزيحها من طريقي وأعيد ابني إليّ...

وفي إحدى زيارات أحمد، وكعادتي معه، جلست أسرد له عيوب زوجته، خاصة بعد أن جعلته دون أن يشعر يفكر في الطلاق، وأردت استغلال الفرصة أحسن استغلال، وبادرته بحدة: نفسي أشوفك جاي تزورني إنتا ولادك بهدوم نظيفة ولا مكوية، إيه البقع دي؟ والعيال دول مش نضاف ليه؟ أنا هاكلمها أبهدلها.

وعلى عكس كل مرة، وعلى غير العادة، أتاني رد أحمد مفاجئًا: ماما لو سمحتي، إحنا أصلًا على صفيح ساخن، ما تبقيش حضرتك سبب الطلاق، بعد إذنك لو جبتيلي سيرة هالة تاني أنا مش هاجي أزورك.

صدمت لرده، خاصة وأنه كان يصيح بحدة، وتوقعت لبرهة أنه عدل عن فكرة الطلاق، ولكنني عاهدت نفسي على أن أستمر في خطتي ولكن دون أن يشعر، فليس من الضروري أبدًا أن يكون كل شيء واضحًا وضوح الشمس في كبد السماء، فلا أحد منا رأى الكهرباء، ولكننا جميعًا نستدل عليها من أثرها... وهنا تكمن قوتها...

اعتذرت منه بهدوء معللة انفعالي بأنه الابن المقرّب إليّ ولا أطيق أن يضايقه أحد أيًّا كان، فوجدته يهدأ بعض الشيء، واعتذر عن انفعاله عليّ، وجمع أبناءه وانصرف مع وعد بزيارة قريبة. هنا فقط أدركت أنني أسير على الطريق الصحيح، وأن خطتي وُضعت محل التنفيذ، وقد لاح نجاحها في الأفق...

ارتمى أحمد في أحضان عمله، وانهمك في تطويره والنهوض به، وقد أثبت تفوقًا بحق حتى أصبح في عمره الصغير هذا – وهو في أوائل عقده الثالث – يمتلك شركة للاستيراد والتصدير ما لبثت إلا وقد أثبتت تقدمها ونجاحها في السوق المحلي...

أصبح شبه دائم السفر خارج البلاد، لم يكن يعود حتى يعاود إدراجه إلى الخارج مرة أخرى، لا أعلم إن كان ذلك سببه حقًا متطلبات عمله أم أنه كان يجد في السفر سبيلًا مقنعًا للهروب من هالة ومشكلاتها، والتي كانت قد انهمكت هي الأخرى في عملها، وأصبحت تتدرج في المناصب حتى نسيت تمامًا كونها أمًا، وتركت رعاية أبنائها بالكامل إلى مربية لم تعبأ من الأصل لتعرف إن كان أبناؤها يحبونها ويشعرون بالراحة معها أم لا...

شرعت في الصمت ظاهريًا، ولكن بطرقي الملتوية كنت أتعمد أن أنقل إلى أحمد كل سلبيات زوجته من إهمال في تربية الأبناء وسوء معاملة معي ومع إخوته وأبيه... كنت أتعمد إثارة غيرتها وأنا أظهر أمامها اهتمام أحمد المبالغ بي حتى وهو خارج البلاد، على الرغم من إهماله لها وتعمده عدم الاتصال بها، فهو كان يعلم جيدًا أنها لا تريد منه سوى المال، وهو ما كان يقدمه لها، وهذا هو ما شرعت في ترسيخه بطريقتي المحترفة في أعماق كل منهم على حدة...

رأيت نتيجة عملي واضحة جلية، عندما كفّ أحمد عن تقديم الهدايا لها، وتوقف أيضًا عن تلك الرحلات التي كانت تشعل بي نيران

الغل والغضب، والتي كان قد اعتاد على اصطحابها معه فيها دائمًا، تاركًا أمه دون حتى أن يعرض عليّ الأمر...

ومما زاد سعادتي أنني علمت من أحمد أن هناك رائدة أعمال من دولة أجنبية أعجبت به وعرضت عليه الزواج، وأنه أيضًا ميّال إلى هذه الفكرة، خاصة بعد أن وصلت الحياة بينه وبين هالة إلى منطقة اللا رجعة...

شجعته على تلك الفكرة وجعلته يرى استحساني، حتى أطلعني على صورة تلك الفتاة المنشودة، فرأيتها جميلة جدًا وذات قوام ممشوق رشيق، وبدأت أُخيّل له كيف سيكون شكل أطفاله منها، كما عمدت هي على تأكيد فكرة أنها إذا تزوجت سوف تأخذ استراحة من العمل وتتفرغ لتربية أبنائها، مما لاقى صداه عند أحمد، بالإضافة إلى أنه وجد فيها ما يتوق إليه من جمال ورقة وقوام صغير وممشوق ورياضي. فأصبحت الفكرة تسيطر علينا معًا، حتى إنه قرر نقل معيشته إلى الخارج بعد الزواج منها، مع وعد لي بأنه سوف يأتي من وقت إلى آخر لزيارتي، مما أثار ذعري، فقد تخيلت أنها هي من ستأتي للعيش معنا، ويا لها من فرصة صالحة للاستغلال على جميع الأصعدة، ولكنه صدمني بقراره هذا الذي يبدو أنه قرار نهائي لا رجعة فيه...

يا الله... لماذا يعاندني القدر في كل مرة؟! لماذا كلما حللت مشكلة ظهرت لي الأخرى؟! لماذا لا تسير الأمور في كل مرة على هواي، خاصة مع أحمد...

فها أنا ذا أسيطر سيطرة شبه كاملة على حيوات أخويه... كما أنني أحصل على كل ما أريد من زوج آلاء وزوجة أنس: هدايا.. نزهات.. عزائم وولائم...

لماذا لا أستطيع تطويعه هو الآخر شأنه شأن إخوته؟!

ولماذا هو تحديدًا من أعجز دائمًا عن السيطرة عليه وتطويعه لما أريد، وهو الأقرب إلى قلبي؟!

لنترك كل هذا جانبًا الآن – بصورة مؤقتة – فهالة لم تُطلَّق بعد وما زالت زوجته. لنحلّ المشكلات واحدة تلو الأخرى. نعم، زواجه من تلك الثرية الأجنبية الجميلة مهم، ولكن طلاقه من هالة الأهم...

تأزمت الأمور بينه وبينها وأخيرًا نطقتها: "طلقني. أنا عارفة إنك بتخوني، وعارفة كمان إنك عمرك ما حبيتني، وإنك اتجوزتني بعقلك مش بقلبك، بس أنا ما بقيتش مرتاحة، وإنت كمان مش مرتاح. خلينا ننفصل بهدوء، والأولاد هيفضلوا معايا، تقدر طبعًا تشوفهم وقت ما تحب."

كدت أرقص فرحًا عندما أبلغني طلبها عبر الهاتف، ووجدتني أقول له: "ما تروحش لوحدك، خد أبوك وأخوك معاك."

وافقني، وبالفعل تم الاتفاق على موعد وذهب هو وأمير وأنس. لا أعلم لماذا، ربما أردت أن أحتفل بوجود "تشريفة" صغيرة حوله، أو ربما ليشعر بأنه ليس وحيدًا، أو لعلني أردت إيصال تلك الرسالة إلى هالة: لقد عاد إلي، وهاكِ مندوبين عني...

كان يوم تنفيذ الطلاق هو يوم عيدي. استيقظت مبكرًا كعادتي وتوجهت إلى المطبخ. أعددت ما لذ وطاب من أصناف الطعام والحلوى التي يفضلها أحمد. لم أشعر بتعب مطلقًا وأنا أعد الطعام، وكأن قوة خفية دبت داخلي عاونتني على إعداد كل هذا، حتى إن أحمد وأمير وأنس أثارت دهشتهم بعد عودتهم من توقيع الطلاق، وتساءلوا كيف أعددت كل هذا بمفردي وفي تلك الساعات القليلة، حتى إنني لم أطلب معاونة آلاء كعادتي دائمًا عند الإعداد لعمل عزائم...

كان استقبالي لأحمد فور دخولهم المنزل استقبالًا حارًا كما لو كان عائدًا توّه من سفر طويل. كان شعوري بأنه أخيرًا عاد إلى وطنه بعد أعوام من مرارة الغربة لي وله. احتضنته بشدة حتى إنني لم أرد إفلاته من بين يدي، حتى تعجب كل من أمير وأنس، وبادرني أمير ممازحًا: "خلاص يا منى سيبيه، هو كان مسافر؟!"

أفلته بعد مجهود مضنٍ مني، وأجبته في غبطة والدموع تملأ عيني: "ما صدقت رجعلي يا أمير."

تجاهلت نظرة حسرة أطلت من عين أنس رغمًا عنه، ولكنه أسرع في إخفائها خلف ابتسامة باهتة وهو يربّت على كتف أخيه قائلًا: "حمد الله على السلامة يا أحمد."

هز أحمد رأسه في إنهاك واضح لا أعلم سببه: "أنا تعبان... عايز أنام."

ردّدْتُ في لهفة: "مش هتاكل الأول؟ ده أنا عاملالك كل الأكل اللي انت بتحبه."

غمغم قائلًا: "لما أصحى... مش قادر."

امتقع وجهي ودبّ الشك في قلبي. لماذا يبدو عليه الحزن هكذا؟ هل من المعقول أنه حزين على فراقها؟ أم أنه حزين على فراق أولاده الذين صممتُ أن تكون حضانتهم معها؟ أنا أعلم جيدًا مدى تعلقه بهم، ولكن مصلحة ابني عندي فوق كل اعتبار.

"ماما... أنا عايز أنام في حضنك... ممكن؟"

نطقها أحمد فانتزعتني من شرودي ودبت بي الحياة مرة أخرى.

أجبته في لهفة: "طبعًا يا حبيبي."

ذهبت معه واحتضنته حتى غطَّ في سبات عميق، ثم تسللت دون أن يشعر حتى لا أوقظه، وخرجت أجالس أنس وأمير الذي بادرني متسائلًا: "نام؟"

غمغمت قائلة: "نام في ثواني، كأنه ما داقش النوم من سنة."

هزّ رأسه متفهمًا، عندما قاطع حديثنا أنس: "الجوازة كان باين عليها من الأول إنها فاشلة. المهم ما حدش يجيبله سيرتها تاني. بقى خلوه يركز في مستقبله، وكفاية كلام في الموضوع ده."

قالها موجهًا إليّ الحديث في قرارة نفسه تمام العلم أنني سوف أبدع يوميًا، وأتفنن في سرد كم كانت هالة سيئة، واختيارًا غير موفق منذ البداية. ليس هذا فقط، بل سأظل أذكره كل يوم، بل كل ساعة، إن

لم يكن كل لحظة، بكل موقف سيئ بدر منها تجاهه أو تجاه أي منا، حتى أضمن أنه لن يفكر بالعودة إليها مرة أخرى ولو بعد حين...

رمقته بنظرة نارية مغمغمة: "قصدك إيه؟!"

أجاب في تململ: "قصدي واضح يا ماما... مفيش داعي تجيبيله سيرتها تاني."

لو لم أكن أريد الحفاظ على مزاجي الجيد وسعادتي التي بلغت اليوم ذروتها، لكان لي معه شأن آخر، ولكنني اكتفيت بنظرة يعلمها هو جيدًا، فأشاح بوجهه بعيدًا عني حتى لا يثير غضبي أكثر من ذلك...

مرّ على تلك الجلسة شهران بالتمام والكمال، كان فيهما أحمد يسير في نجاحه في عمله بشكل ملحوظ جنبًا إلى جنب مع بحثه عن عروس مناسبة، حتى إنه تعرف على أكثر من أربع فتيات... لا أعلم لماذا، وهو الذي كان قد قرر الارتباط بتلك الثرية الأجنبية التي لم أستطع نطق اسمها إلى الآن. فعاودْتُه اسأله: "إنت مش هتتجوز البنت الأجنبية اللي إنت وريّتني صورتها؟"

فأجابني متلهفًا: "بصراحة يا ماما مش عارف... لسه بفكر... لسه مخدتش قرار. لو ده حصل أنا حسيب مصر خالص وأنقل شغلي كله برا، بس أنا ميّال لكده فعلًا. أنا مقتنع جدًا المرة دي."

وتسيبني؟!

هزّ رأسه نافيًا: "لا يا ماما، الأمور مش هتبقى زي ما حضرتك متخيّلة. أنا هنقل شغلي برا، وغالبًا هدمج شركتي مع شركتها، وهي شاطرة،

وهبقى أنزل أشوف حضرتك كل فترة. وحضرتك مش هتحسي إني مسافر، لإن زياراتي هتكون في أوقات متقاربة. الوضع هيكون زي دلوقتي تقريبًا. أنا كده كده بقعد دلوقتي برا مصر أكتر ما بقعد فيها."

"ماشي يا أحمد، اللي إنت شايفه يا ابني. أنا أهم حاجة عندي سعادتك. كفاية إنها غنية وحلوة، وشكلها بتحبك."

ابتسم مؤيدًا كلامي ثم انطلق إلى عمله. أما أنا فانطلقت بخيالي سارحة في زوجة ابني الجديدة التي ستجعلني أتكبر على الجميع: انظروا من أعجب بابني وتزوج منه! انظروا كم هي ثرية وجميلة، بل إنها ليست من دولتنا أصلًا، وعلى الرغم من ذلك فقد أعجبت به، بل وهي من طلبت الزواج منه أصلًا...

يبدو أنني سأحصل على ما أريد...

كان أحمد ينهي إجراءات سفره كي يجري صفقة جديدة وينهي إجراءات زواجه من فتاته الأجنبية. كان منشغلًا جدًا تلك المرة عن كل ما سبقها، وكان مهتمًا جدًا بإعداد ملابسه، فقد عمد إلى شراء الجديد منها. نعم، فهو عريس ويجب أن يهتم بنفسه ويفعل ما لم يتسنَّ له الحصول عليه في زيجته الأولى، والتي كانت أشبه بمشروع فاشل منها إلى زيجة...

رتب كل أموره، وأغلق حقيبته وتركها استعدادًا للسفر الذي كان قد تحدد موعده بعد يومين. وعاد من عمله في ذلك اليوم، ووجدته وكأنما عاد بالعمر لأكثر من عشرة أعوام مضت، متورد الوجنتين، وتظهر في عينيه لمعة لم أرَها من قبل قط...

جلس إلى جانبي قائلًا في هيام لم أعهده فيه: "ماما... أنا شوفت النهاردة بنت غريبة قوي وجميلة."

ابتسمت لابتسامته العذبة الرائقة على غير العادة: "هي السبب في الجمال اللي أنا شايفاه قدامي دلوقتي ده؟!"

أجاب باستغراب: "جمال إيه؟!"

"إنت مش شايف نفسك ولا إيه؟ داخل رايق وبتضحك، وعينك بتلمع ما شاء الله."

هزّ رأسه مبتسمًا علامة الإيجاب: "غريبة يا ماما."

اندهشت من تشبيهه، فسألته متعجبة: "غريبة إزاي يا حبيبي؟"

أجاب وهو ينظر نظرة حالمة وكأنه يستدعي شيئًا ما من مخيلته: "هي جاية تتدرب عندي في المكتب. بنت ناس جدًا، والدها رجل أعمال على خلق. أنا أعرفه معرفة شخصية. انفصلت من فترة ومعاها طفل، مرت بجوازة صعبة جدًا مفيش حد يقدر يستحملها، وصاحب والدها اقترح إنها تنزل تغيّر جو وتتدرب عندي في الشركة... وفعلاً جت النهارده. بس أول لما شوفتها حصلت حاجة غريبة جدًا... حسيت إني مش شايف ملامحها... أنا حسيت إني شايف نور."

أطلّت من عينيّ نظرة اندهاش متسائلة: "إزاي؟"

حقيقي مش عارف إزاي، بس ده اللي حصل، وحسيت بشعور انجذاب غريب جدًا ليها، مع إنها مش بتتكلم كتير. اللي عرفني ظروفها دي الصديق المشترك اللي بيني وبين والدها.

قصدك إنها حلوة يعني؟

هي فعلًا جميلة ورقيقة جدًا.. وذكية جدًا.. فهمت الشغل بسرعة وابتدت تحقق إنجاز فعلًا من أول يوم.. أنا مش فاهم واحدة زي دي تُطلَّق ليه؟

أجبته بسرعة: ما تحكمش على الناس من أول مرة.

أنا سألت أستاذ أمجد، الصديق المشترك بيني وبين والدها، عنها وعن سبب الطلاق. قالي إن طليقها كان إنسان مستهتر جدًا، والأغرب إنه كان بيغير منها ومن تفوقها، واتعمد يدمرها علشان كان حاسس قدامها بالنقص، بس هي تعبت وما استحملتش، واتنازلت عن كل حقوقها علشان تُطلَّق.

أشفقت على تلك المسكينة مما سمعته، ولكنني عاندت نفسي وأصررت على موقفي: برضو ما تحكمش عليها قبل ما تعرفها كويس.. إنت عارف مجتمعنا بيشوف المطلقة إزاي...

قاطعني بلهفة: لا يا ماما، إلا ندى. معظم اللي عرفوا حكايتها متعاطفين معاها جدًا، خصوصًا وإن طليقها معروف، وسمعته اتعرّفت عنها فعلًا الفترة اللي فاتت إنه مستهتر ومش مسئول.

سألته في خبث وأنا أميل برأسي تجاهه: في إيه في دماغك يا أحمد؟

أجاب بابتسامة عذبة: مش عارف... بس أنا قررت آجّل سفري يومين وأقعد معاها، بصراحة مش قادر أسيبها وأسافر، فيها حاجة غريبة جدًا شادّاني.

لم يكن يعلم أن بعد نطقه لعبارته الأخيرة تلك اتخذت حياته مسارًا مختلفًا تمامًا...

وبصورة جذرية...

في صباح اليوم التالي قام مسرعًا إلى مقر شركته، حيث تعمّد الذهاب في وقت مبكر جدًا عما كان معتادًا عليه، آملًا أن تكون ندى قد سبقته إليه. لم ينتظر قدوم المصعد، بل اتجه بسرعة إلى الدرج، قافزًا درجاته بسرعة ورشاقة وكأنه يسابق الزمن، وداخله شعور غريب باللهفة، لم يكن ليعرفه من قبل. ودار في ذهنه عدة أسئلة... ترى هل سبقتني؟... هل تشعر مثلي بتلك اللهفة؟... لماذا هي؟... ومتى حدث ذلك؟... وكيف؟... هل ستعطيني فرصة؟... أم أنها قررت غلق باب قلبها إلى الأبد كما قال لي أمجد؟... وإذا حدث هذا، كيف أجد طريقي إليه؟... العديد والعديد من الأسئلة التي لم يجد لها إجابة، ولم يفهم ما تلك المشاعر التي اجتاحته فجأة وبسرعة خارقة؟... أهي صادقة؟ أم أنه متعجل؟...

أخذت تلك الأسئلة تجول في ذهنه حتى صعد إلى مقر الشركة، التي وجد بابها ما زال موصدًا، دلالة على عدم وجود أحد حتى الآن.

ألقى نظرة سريعة على ساعة يده، فوجد أن عقاربها ما زالت تشير إلى الساعة السابعة صباحًا، وهو بالفعل موعد مبكر جدًا، ويسبق

مواعيد العمل الرسمية بساعتين كاملتين. ابتسم ابتسامة خفيفة محدّثًا نفسه بصوت مرتفع وهو يدلف إلى حجرة مكتبه: معقولة نزلت بدري أوي كده؟... كل ده علشان أشوفها؟... معقولة تسرق تفكيري وتخرجني عن تركيزي من أول يوم؟

ثم أخذ في إعداد مشروب دافئ، وذهنه يعيد له كل ما حدث معه منذ يومين... نعم يومين فقط...

كان يجلس هادئًا كعادته، يطالع البريد الإلكتروني الخاص بالعمل، ويتصفح بريد الشركة الإلكتروني، ويراجع مراسلات الشركات الأجنبية التي يتعامل معها، حين قاطعه رنين هاتفه الجوال. وعندما نظر إليه وجد اسم أمجد، وهو صديق مقرب جدًا منه، وكان يكبره بعدة أعوام، لكنه كان مقربًا منه لدرجة سمحت له بأن يكون شاهدًا على معظم مشكلاته مع هالة، حتى وقوع الطلاق بينهم. أجاب على هاتفه فأتاه صوت أمجد مبتسمًا:

صباح الخير يا أحمد، عامل إيه النهاردة؟

أجابه أحمد: صباح الخير يا أستاذ أمجد، الحمد لله بخير.

رد أمجد بحماس قائلًا: انزل، عايزك في مشوار.

أجاب أحمد في حنق: تاني يا أستاذ أمجد؟ حضرتك لسه مُصرّ تعرفني على صاحبك والد البنت دي؟

رد أمجد وما زال الحماس مسيطرًا عليه: أيوة، وانزل بسرعة، أنا مستنيك تحت الشركة عندك.

غمغم أحمد في استسلام حانق: حاضر يا أستاذ أمجد، أنا نازل.

وكان قد أثار حنقه بعد أن حاول إقناعه بزواجه من ابنة صديق له متدين وعلى خلق، وذو مكانة اجتماعية ومادية مرموقة، لم يحالفها الحظ في زيجتها الأولى، وخرجت منها شبه مدمرة نفسيًا، وقررت عدم الزواج مرة أخرى، ولكنها ما زالت شابة في مقتبل العمر في منتصف عقدها الثاني، ولكن أصابها ما يمكن أن نطلق عليه عُقدة من الزواج ومن الرجال بشكل عام...

ظلَّ أمجدُ يُقنعه بالزواج منها فهي – على حدِّ قوله – فرصةٌ لن تتكرَّر، حتى إنه اصطحبه معه لزيارة والدها في مقرِّ عمله دون علم كليهما بالغرض من الزيارة، حيث تفاجأ الاثنان بطلبٍ غريب من أمجد وجَّهه إلى والد ندى متحدثًا بحزمٍ حانٍ: شوف بقى يا أستاذ حازم أنا جايلك النهارده جايبلك هدية، وطالب إيد ندى لأخويا الصغير أحمد.

تفاجأ الاثنان فيما شعر أحمد بارتباكٍ وتوتر شديدين، فهو كان قد أعدَّ العُدة وجَهَّز أمره للزواج من فتاته الأجنبية تلك، نعم هو لا يكنُّ لها أية مشاعر، ولكنه كان يرى فيها بعض الامتيازات التي حُرم منها مع هالة، حيث وجد فيها الجمال ورقَّة الملامح والجسد الرياضي الضئيل، وهو ما كان يرغب فيه من مواصفات شكلية، إضافة إلى نجاحها في عملها فهي أيضًا تملك شركةً للاستيراد والتصدير في بلدها وكانت شديدة النجاح في إدارتها بمفردها.

أمَّا عن مشاعره تجاهها فقد اكتفى بوجود قبول، ولكنه لم يكن يفكر في الحب ولم يكن يدرك أن له وجودًا على أرضنا هذه وفي هذا الزمن تحديدًا الذي اتسم بالسرعة وتبادل المصالح، فهو عصر المصلحة بالدرجة الأولى... ابحث عن مصلحتك في المقام الأول وبعدها يأتي أي شيء... فهكذا تربى... وهو ما أسهبت في تعليمه إيَّاه أمُّه، فهي ترى الحياة من منظور براغماتيٍّ نفعيٍّ بالدرجة الأولى، ولا شيء غير المصلحة، أمَّا المشاعر تلك فهي شيءٌ غريب لا يصلح إلا للتسلية وإطلاق النكات...

أمَّا والد ندى فقد شعر بالارتباك وحاول الاعتذار بدبلوماسية، وقال بابتسامة متوترة: والله يا أستاذ أمجد إنت عارف إنت غالي عليَّ إزاي، بس زي ما إنت عارف ندى رافضة الجواز تاني، تقدر تقول إنها اتعقدت.

أجاب أمجد بحماس: أنا عارف كل حاجة، سيب الموضوع عليَّ، وأنا بأكدلك إن أحمد راجل وحيصونها، وحيعوضها عن أي حاجة وحشة شافتها.

ازداد ارتباك أحمد فيما لاحظ حازم هذا الارتباك، وحاول التعامل مع الموضوع بدبلوماسية حتى لا يتأزم الموقف أكثر من ذلك، وأجاب في اقتضاب مبتسمًا: ربنا يقدِّم اللي فيه الخير. ثم حاول تغيير دفة الحديث قائلًا بترحيب: دخلت في الكلام على طول يا أستاذ أمجد، مش تشرب حاجة إنت والضيف ده حتى؟ أول مرة ينورني في مكتبي.

تبادلنا ضحكةً رسمية، ثم استدعى السيد حازم عامل البوفيه وترك كلٌّ منا يطلب ما يريد، ثم انصرف، وتبادلنا جميعًا أحاديث خاصة بالعمل، ثم استأذنا وانصرفنا.

فور انصرافنا توجهتُ بحدَّة إلى أمجد: معقولة تدبسني في جوازة وحضرتك عارف إني مسافر أتجوز برَّا ومرتب كل أموري؟

استقبل أمجد حدَّتي بابتسامة ودودة، فهو يتسم بالعقل والرزانة، مما جعلني أتخذه صديقًا على الرغم من كونه يكبرني بعشرة أعوام تقريبًا، ولكنني كنت دائمًا ما أثق في رأيه وحكمته، وقال: ندى هتيجي من بُكرة تتدرَّب عندك في الشركة، شوفها وبعدين نتكلم. أنا طلبت من حازم إنه يخليها تجيلك بُكرة بإذن الله.

دُهشتُ من إصراره على القدوم مضيًا في خطته، بل إنه حدَّد موعدًا وقرر كيفية اللقاء وأدار الأمر برمته بتلك السرعة الهائلة وكأنه كان قد خطط للأمر سابقًا وهو الآن يشرع في تنفيذ خطته.

رددتُ في استسلام حانق: حاضر يا أستاذ أمجد، أنا كده كده مسافر كمان يومين.

أجاب أمجد في شيء من الارتياح: تمام، بس خُد بالك هي ما تعرفش هي جاية الشركة ليه... كل اللي تعرفه إنها جاية تشتغل وبس... فاهم يا أحمد؟ تشتغل وبس.

هزَّ أحمد رأسه علامة التفهم، ثم انصرف كلٌّ منهم وهو يضمر ما يضمر...

وفي اليوم التالي كان أحمد قد أعدَّ خطة مضادة لخطة أمجد، فقد قرر أنه سوف يجري مقابلة عمل مع تلك الفتاة المنشودة، ثم يتحجج لها ولأمجد بأي عذر ويرفض عملها معه، فهي لم تعمل من قبل ولا تعرف شيئًا عن سوق العمل ومتطلباته، ولن تستطيع الإلمام بكل تفاصيل الشركة بسرعة. أضف إلى ذلك أن ما فهمه من أمجد أنها فتاة مدللة، مرفهة من أبيها، وهو غير مستعد لتدريب فتاة سخيفة غبية؛ من جهة هو لا يملك الوقت، ومن جهة أخرى ليس لديه أدنى طاقة لبذلها معها. بمعنى أدق سوف يتحجج بأي شيء لاستبعادها...

وفي اليوم التالي ذهب إلى عمله متثاقلًا متململًا، يحمل على كتفيه عبء وضعه أمجد بالتعامل مع تلك الفتاة المرفوضة شكلًا وموضوعًا، وعندما ذهب إلى مكتبه شرع في إعداد مشروب دافئ كعادته دائمًا، ثم جلس خلف مكتبه يحتسي مشروبه ويباشر عمله محاولًا تهدئة أعصابه بمقطع موسيقي ناعم اعتاد على تشغيله في الخلفية، كان يساعده على زيادة تركيزه...

وفي الموعد المحدد للمقابلة بالضبط وجد مديرة مكتبه تدق باب المكتب طالبة الإذن بالدخول، فأجابها داعيًا، فتقدمت وأخبرته أن الموظفة الجديدة أتت حسب الموعد المتفق عليه، فألقى نظرة سريعة على ساعة معلَّقة أمامه وتعجَّب من حضورها في الموعد المتفق عليه بالضبط، فأذن لها بإدخالها، وأسند ظهره متململًا إلى

ظهر مقعده منتظرًا الضيفة الثقيلة الآتية، لكن حدث ما لم يكن في حسبانه...

فما إن دلفت بابتسامتها الأنيقة ومظهرها الراقي مُلقيةً تحية بسيطة مع إيماءة خفيفة من رأسها تدل على مدى رقيها ورقتها، حتى وجد قدميه تدفعانه إلى الأمام مرحبًا بها، ووجد والدها بصحبتها، فتقدم يصافحه بحرارة تعجب لها حازم، ولكنه بادله ترحابًا مماثلًا. فدعاهم للجلوس أمام مكتبه وانضم إليهم تاركًا مقعده خلف مكتبه، وتعمد الجلوس معهم أمام المكتب...

لا إراديًا وجد نفسه يتفرَّس ملامحها الرقيقة، وحاول جاهدًا أن يخفي ما يعتمل بداخله، وقرر فتح حوار عملي بحت. بدأ حديثه موجهًا السؤال إليها: حضرتك خريجة إيه؟

أجابت بهدوء وابتسامة عذبة رقيقة سلبت لُبَّه: اقتصاد وعلوم سياسية.

انبهر لمؤهلها، ففتاة مدللة لأبٍ غني هل من الممكن أن تكون منضبطة ومتفوِّقة إلى هذا الحد؟...

ولكنه سرعان ما نفض هذا الخاطر عن ذهنه؛ فما المانع لحدوث هذا؟ تبا للمعتقدات السخيفة التي يرددها البعض والتي قد لا تمت للواقع بأي صلة.

عاودها مرة أخرى وهو يسألها بود: تعرفي حاجة عن شغل الاستيراد والتصدير؟ أعتقد إن ده بعيد شوية عن مجال دراستك.

أجابت بود مماثل وابتسامتها المهذبة الرقيقة لم تغادر وجهها: بالعكس، ده جزء من دراستي، ثم إن أنا عندي نَهَم للمعرفة، بحب أقرأ كتير وأعرف ولو حاجة واحدة عن كل حاجة.

جذبه حديثها، فقرر توسيع دائرة النقاش حتى لا يأخذ طابع مقابلة عمل فقط: ممكن أعرف حضرتك تعرفي إيه عن شُغلنا؟ وإيه الكتب اللي قريتيها الفترة اللي فاتت تخص الموضوع ده؟

أجابت بثقة، ولم تزل ابتسامتها تزين ملامحها الرقيقة، وسردت له أسماءً لمجموعة من الكتب والدراسات باللغتين العربية والإنجليزية، فازداد انبهاره بشخصيتها ونسِيَ العمل تمامًا...

كان هذا الحوار يدور تحت سمع وبصر والدها السيد حازم، الذي جلس مبتسمًا معجبًا بشخصية ابنته، وإن كان كل ذلك يشعره بغصَّة ومرارة، كونه لم يُحسن اختيار زوجها مما أدى إلى خوضها تجربة مريرة خرجت منها شبه مدمَّرة نفسيًا...

ولكنها الآن في حالٍ أفضل؛ فقد عادت لتمارس عاداتها السابقة والتي كانت قد تركتها في محاولة يائسة لإرضاء زوجها الأرعن، والذي كان يفسر كل اهتماماتها على أنها تكبُّرٌ منها عليه، فانقطعت عن القراءة وأهملت هوايتها الأولى والمفضلة، وأخذت تتناسى ما درسته شيئًا فشيئًا حتى أصابها الذبول والشحوب، فكل محاولاتها لإرضائه باءت بالفشل، حيث كان يشعر بضآلته أمامها لمجرد أنها تجذب الانتباه في أي تجمع، حتى التجمعات العائلية، بشخصيتها اللطيفة المثقفة وأحاديثها الشيقة، مما لم يتحمله هو، وعمل على

تدميرها إلى حدِّ رفضه مشاركتها في أي تجمع، بل وذهب إلى ما هو أكثر من ذلك فقد عمد إلى رفض خروجها من المنزل أصلًا، ولا حتى لزيارة أهلها، حتى أصبحت حبيسة أربعة جدران، ومن أراد رؤيتها هي وابنها فهو من عليه القدوم لزيارتها، تمامًا كما يحدث مع السجناء، حتى انهارت ولم تتحمل.

وهنا كان يتوجب عليه كأب أن يخلِّص ابنته من سجنها الذي كاد أن يودي بحياتها، فتنازلت عن كل ما لها من حقوق في سبيل حصولها على حريتها، وبعد صراعات مريرة تحررت أخيرًا، وبمساعدة الأطباء النفسيين استعادت جزءًا من مرحها السابق وإن لم تعد كما كانت بصورة كاملة، وأقلعت عن فكرة الزواج مرة أخرى، بل وفقدت الثقة في جميع الرجال، وأصبحت تراهم وحوشًا مقنَّعة، لا يوجد منهم أحدٌ صادق، ومن يظهر أي مشاعر احترام لزوجته فهو ممثل بالطبع... ولكن من يدري... لعل الله يُحدِث بعد ذلك أمرًا...

أفاق من شروده على صوت أحمد وهو يتوجه له بالحديث: شكرًا جدًا يا أستاذ حازم إن حضرتك وافقت إن ندى تشتغل معانا هنا في الشركة، هي فعلًا هتكون إضافة ممتازة لينا وهتكمل الفريق، وأتمنى إننا نكون قد ثقة حضرتك.

شكره حازم واستأذن في الانصراف لانشغاله بمواعيد عمل، وأيضًا وجد الموظفين والعملاء قد ملأوا المكان، وأزفت ساعات العمل الرسمية بالشركة.

فتبادلا السلام وانصرف، تاركًا ابنته تبدأ فصلًا جديدًا من حياتها متمنيًا أن تجد ما يعوضها خيرًا عمّا مرت به...

بعد انصراف والدها اندمجت ندى مع زملائها الجدد، وأظهرت ودًّا جميلًا مع الجميع حتى ذابت فيهم وكأنما تعرفهم منذ زمن بعيد بلطف متزن، وتسلمت مهام عملها والتي جلس أحمد يسردها لها بأدق التفاصيل وكأنما وجدها فرصة للتقرب منها وإدارة حديث معها، فقد انجذب لحوارها كثيرًا وتأثر بثقافتها، وأفسح لها المجال لتلقي أسئلة فكان الحوار مثمرًا بحق...

وفي نهاية اليوم طلب منها رقم هاتفها متحججًا بأنه قد يحتاج التواصل معها لأمور تتعلق بالعمل، فرمقته بنظرة لم تخلُ من الشك لكنها استجابت عندما تدخلت زميلة لها قائلة بمرح:

أستاذ أحمد معاه أرقامنا كلنا... ما هو لازم يشغلنا جوا الشركة وبرا كمان.

فردت عليها بمرح لطيف، وأجابت بإيماءة من رأسها متفهِّمة وأعطته الرقم...

لا يدري سبب تلك الفرحة التي اعترته بعد حصوله على رقم هاتفها، ولم يفكر ماذا سيفعل به؟ أو ما هي خطوته التالية؟ فقط كان كل ما يشعر به أن تلك الفتاة أسرته... كيف؟ متى؟ لماذا؟... لا يعلم... لكنه لم يكن من النوع الذي يترك أي شيء للصدفة أو القدر، فقد كانت المصلحة تحكم تصرفاته، وإن شعر أن مصلحته في ثبر أغوارها...

استعاد ذهنه كل هذا وهو جالس في انتظارها، ثم سرق نظرة خاطفة على الساعة المعلقة أمامه وابتسم حين وجد أن موعد وصولها إلى العمل تبقّى عليه فقط خمس دقائق...

فتح حاسوبه وجعل مقطوعته الموسيقية العذبة الناعمة التي يفضلها تنساب في الخلفية كما اعتاد دائمًا، وجلس يطالع بعض أعماله الروتينية وقد بدأ الموظفون في الحضور الواحد تلو الآخر حتى وصلت هي في موعدها المحدد تمامًا...

دخلت بابتسامتها العذبة ملقية التحية على كل زملائها وعلى أحمد أيضًا، الذي ما إن رآها حتى هب من خلف مكتبه ورد تحيتها، وتعجب الزملاء من وجوده في الشركة، فقد كان من المقرر أن يسافر في رحلة عمل خارج البلاد. كان أكثرهم تعجبًا شريكه وصديق عمره حسام الذي سأله بدهشة:

إنت إيه اللي جابك النهارده؟ مش المفروض تكون في طريقك للمطار؟ هو حصل حاجة في الشغل ولا إيه؟

أجابه أحمد بمرح مرتبك: لا أبدًا، ما حصلش حاجة، بس قولت أأجّل يوم يعني، علشان كمان في شوية حاجات محتاج أعرفها لندى علشان تستلم الشغل كله بالكامل وتتابع معايا سير العمل وأنا مسافر.

التمعت عينا حسام وابتسم ابتسامة خبيثة أدرك أحمد معناها، قائلًا: ماشي يا سيدي... اتفضل عرّف ندى الشغل ماشي إزاي.

شعر أحمد بالارتباك فالمكان يعج بالموظفين، فيما جلست ندى ويبدو عليها الانهماك في القيام بمهام عملها الجديد والذي يبدو أنه راق لها كثيرًا...

استأذنها أحمد أن تترك ما تفعله لخمس دقائق ليُوضح لها بعض الأمور المتعلقة بالعمل، وجلس معها على مقعدين متقابلين في المكتب وأخذ يشرح لها بعض النقاط والتي كان قد شرحها في اليوم السابق بالفعل.

وعندما ظهر التعجب على وجه ندى فجأة، قاطعها أحمد: قريتي كتاب السر؟

فأجابت ندى بأسف: لا، بس بدوّر عليه ومش لاقياه... الدعاية بتاعته كانت ملفتة جدًا للانتباه، وأعتقد ده سبب إنه اتسحب بسرعة من المكتبات.

فوجدت أحمد يقوم متوجهًا إلى ركن في المكتب جعله شبه مكتبة صغيرة أضاف إليها مجموعة من الكتب القيمة تدل على مدى ثقافة صاحبها، وسحب منها كتابًا تعلقت به أعين ندى حتى عاد ليجلس أمامها فتهللت أساريرها عندما وجدت عنوان الكتاب السر الذي كانوا بصدد الحديث عنه الآن...

مدّ أحمد يده مناولًا الكتاب لندى بابتسامة مهذبة: اتفضلي.

تناولت ندى الكتاب بابتسامة عريضة: معقولة لقيت نسخة؟

أجاب بود: اعتبريها هدية.

تخضب وجهها بحمرة الخجل وقالت بصوت منخفض: شكرًا لحضرتك جدًا، بس مفيش داعي إنه يكون هدية، أكيد تعبت علشان تلاقيه، وأنا كمان موصّية أكتر من مكتبة علشان يوفرولي نسخة.

أجاب أحمد بابتسامته الرقيقة المهذبة:

مفيش داعي، كلميهم بقى وقوليلهم إنك خلاص لقيتي نسخة، وبعدين هترفضي الهدية وتكسفيني؟

احمرت وجنتاها وأطرقت رأسها في خجل مرتبك ثم همت بالاستئذان، وكادت تنصرف لتكمل عملها بعد أن شكرته، لكنه استوقفها برقة وأدب قائلًا بهدوء: المكتبة دي بتاعتي وتقدري تستخدميها براحتك وأنا مسافر... اعتبريها مكتبتِك. تقدري تاخدي منها الكتاب اللي تحبيه. هتلاقي مجموعة كتب كتير في السياسة والاقتصاد، أعتقد إنها هتعجبك جدًا.

شكرته بإيماءة راقية من رأسها وغمغمت ببضع كلمات غير مفهومة دلت على شدة ارتباكها ثم انصرفت وشرعت في استكمال عملها...

انتهى اليوم وهمّ الجميع بالانصراف وسلّموا على أحمد، والذي كان عزم على السفر في اليوم التالي – مضطرًا – لإتمام بعض الصفقات التجارية، واتجه هو إلى حيث تقف ندى تلملم هاتفها وحاسوبها المحمول لاستكمال بعض مهام العمل ولتكون على اتصال دائم مع أحمد أثناء سفره، فهي أخصائية المراسلات الخارجية كما أنها متابع لخطط تقدم العمل، ويجب أن تكون على اتصال دائم معه لمتابعة

سير العمل خطوة بخطوة وتسجيل كل ما هو جديد والعمل على إمداده بكل المعلومات المطلوبة حول الشركات التي يقصدها أولًا بأول...

تقدّم إليها فيما شعر بارتباكها فقال في ود هادئ: أشوف وشّك بخير.

أجابت في هدوء مماثل وبابتسامتها الرقيقة: تروح وترجع بالسلامة بإذن الله.

أتمنى إن الشغل يكون عجبِك، ويا ريت ما تسيبيهوش.

هزّت رأسها: الشغل ممتع جدًا ورجعلي شغفي بالفعل وأنا معاكوا إن شاء الله.

قال في نبرة يشوبها التأثر: إن شاء الله.. لما أرجع حيكون لينا كلام كتير مع بعض.

أجابت باقتضاب ولم تفهم ما يرمي إليه: إن شاء الله.

ثم استأذنت بالانصراف وذهبت...

تابعها بعينيه حتى خرجت من مقر الشركة، فعاجله حسام بمرح: روّحت فين؟

أجابه أحمد برقة لا يعلم سببها: مفيش...

رد حسام وقد اتسعت ابتسامته: شكلك وقعت.

ابتسم أحمد وقال: أنت ناسي إني مسافر أتجوز؟

عاجله حسام وقد تحولت ملامحه إلى الجدية واكتسى صوته بحزم حاني: إنت لسه مصمم على اللي في دماغك ده؟... خلي بالك يا أحمد، انت بتكرر نفس الغلطة تاني، الجوازة دي مش هتنجح برضو.

ولكن هذه المرة لم يجب أحمد، ولم يقاوم، وإنما غرق في التفكير...

فاستطرد حسام بنفس الحزم الحاني: راجع نفسك يا أحمد، أنا شايف إن ندى فرصة كويسة جدًا ما تتسابش، إنسانة محترمة وعلى خلق، وذكية وجميلة، ومش حتبعدك عن أهلك وعن والدتك اللي متعلقة بيك... راجع نفسك، وفكّر كويس قبل ما تاخد أي خطوة.

ويبدو أن كلام حسام لاقى صداه لدى أحمد الذي هزّ رأسه في تفهّم ثم سلّم على حسام وعانقه، فيبدو أن سفره سيطول هذه المرة، وانصرف كل منهم إلى شأنه...

عاد إليّ أحمد في ذلك اليوم وهو شارد، وابتسامته الجميلة لم تفارق وجهه، ودخل عليّ وأنا أقوم بتجهيز الطعام: ازيك يا ماما؟

أجبته بابتسامة عريضة: الحمد لله يا حبيبي.. حمد الله على السلامة. إيه الابتسامة الحلوة دي؟ ندى برضو؟

أجاب وابتسامته ما زالت على وجهه: مافيهاش غلطة يا ماما.. مش لاقي... جميلة جدًا ومثقفة وذكية واندمجت في الشغل ومع زمايلها في زمن قياسي، وبدأت تراسل شركات والشركات بترد عليها كإنها بتشتغل من سنين.

قلت وقد بدأت الغيرة تجد طريقها إليّ، وهو ما شعر به أحمد ولكنه لم يعره اهتمامًا: كل ده؟ ليه يعني نازلة من السما؟

أنا بقول لحضرتك اللي حصل من غير أي إضافات، حتى اسألي حسام.

قلت في خبث وقد اشتعلت الغيرة بداخلي: حسام كمان معجب بيها؟ يا عيني عليكي يا دينا... هو نِسي إنه متجوز ومخلّف؟

أجاب في ضيق: لا يا ماما مش معجب بيها ولا حاجة، هي بس ملفتة للانتباه، شدتني ولفتت انتباه حسام من غير أي مجهود منها، هي بتتصرف بطبيعتها جدًا، مفيش أي تصنع أو تمثيل.

تطلعتُ إليه في شك ثم باغتّه: انتا عايز إيه بالظبط؟ انت مش كنت مسافر عشان تتمم جوازك من البنت الأجنبية واتفقت معايا على كده؟ جاي دلوقتي جايبلي واحدة جديدة وبتقول فيها شعر؟

أجاب وقد بدت الحيرة على وجهه: بصراحة مش عارف... ومش عارف لو اتقدمتلها هتوافق أصلًا ولا لا... دي متعقدة من الرجالة.

قاطعته بحدة: وكمان معقدة؟

أجاب بنفس الحيرة: أيوة يا ماما.. الأزمة اللي مرت بيها ما كانتش سهلة عليها، خصوصًا إنها رقيقة جدًا.

ظهرت الغيرة واضحة جلية في كلامي وأنا أقول: والرقيقة الجميلة اللي مافيهاش غلطة دي اتطلقت ليه؟

أجاب في ضيق: تاني يا ماما؟.. ما أنا قولت لحضرتك اللي حصل.

رددّت بسرعة، محاولة زرع الشك في قلبه تجاهها: ما تسمعش من طرف واحد... اسمع من طليقها الأول وبعدين احكم.

يبدو أن كلمتي أصابت مكانها بدقة، فالتمعَت عينا أحمد، فهزّ رأسه متفهمًا وتمتم في غموض: ربنا يقدم اللي فيه الخير.

فقاطعت شروده عامدة: يلا يا حبيبي علشان تاكل، أنا عارفة إنك لما بتسافر مابتاكلش كويس... أنا عملتلك الأكل اللي انت بتحبه.

وظللت أفكر كثيرًا...

وكثيرًا...

في اليوم التالي سافر أحمد وتركَني سابحة في أفكاري...

من تلك الفتاة التي سيطرت على تفكيره إلى هذا الحد؟... وكيف فعلتها؟... فأنا لم أعهد ابني هكذا من قبل. وهل من الممكن أن تجتمع كل تلك الصفات في شخص واحد كما يدّعي؟.. أم أنها تجيد التمثيل إلى هذا الحد لأنها تريد لفت انتباهه وأثارها الطمع في وضع ابني المادي؟

ولكنني استبعدت تلك الفكرة بعد أن تذكرت مكانة والدها الاجتماعية، كما أنها انفصلت عن رجل ذو مكانة مادية عالية كوالدها، إذًا هي ليست بحاجة إلى المال...

ولكن كيف؟... ولماذا أحمد بالذات؟... ولماذا يتحدث عنها هكذا؟... أنا لم أحتمل طريقة حديثه عنها...

وجدت نفسي أسرع والتقطت هاتفي وأطلب آلاء، وعندما أتاني صوتها لم أمهلها لتقص عليّ كيف كان يومها كما هي عادتها دائمًا، فانطلقت أبادرها القول:

شوفتي أحمد؟ بيقول إن في واحدة جت اشتغلت عنده في الشركة، متطلّقة ومعاها طفل، وعمال يقول فيها أشعار... دي جميلة، دي ذكية، دي بنت ناس... سيطرت على تفكيره لدرجة إنه بيفكر ميتجوزش البنت الأجنبية دي ويحاول يتجوزها، مع إن البنت التانية حلوة وغنية... أخوكي ده حيجنني.

أتاني صوت آلاء وهي تقول بعد زفرة حارة: أنا مش فاهمة دماغه بصراحة يا ماما، هو عايز إيه بالظبط؟ وبعدين هو في حد كامل؟ ولما هي كاملة كده اتطلقت ليه؟

أجبتها متلهفة وكأنني كنت أنتظر أن يشاركني أحد الرأي ويهدئ من روعي، فأنا لم أتحمّل إعجاب أحمد بها، فأنا نجمة حياته وبطلة أيامه وليس غيري:

أنا قولتله كده، وقولتله يسمع من طليقها ومايحكمش من طرف واحد...

عموما، أهو سافر، والبنت التانية دي مش هتسيبه... دي ماسكة فيه بإيديها وبسنانها.

نطقت تلك الجملة بصوتٍ مرتفع وكأنني أطمئن نفسي بأنني سوف أظلّ أنا الوحيدة التي تملك قلب أحمد، لن يشاركني فيه أحد حتى

ولو كانت زوجته، أمّا إذا أراد أن تربطه بزوجته أيّة مشاعر فإنها سوف تكون نابعة من محض المصلحة... المصلحة فقط وليس غيرها...

صدّقت آلاء على كلامي مما جعلني أهدأ قليلًا، فأدرت دفة الحديث وسألتها كيف سار يومها، ثم ألقيت عليها بضعة أسئلة تخص زوجها وأهله كي أتأكد من أنّ شيئًا لم يفتني، ثم أغلقت الهاتف، لا سيما بعد أن سمعت صوت زوجها يطلب منها إغلاق الهاتف وإعداد كوبٍ من الشاي له. أنا أعلم أنه يتعمد ذلك ويتعمد إحراجي، كما أنني لاحظت تغيّر معاملته معي وسمعته يصفني بالطمع والشحّ في أحد الأيام، ولكنني لم أعبأ أو أهتم بكلامه طالما أحصل على ما أريد...

في صباح اليوم التالي تعالى صوت رنين هاتفي، ألقيت نظرة عليه فوجدته يحمل رقمًا دوليًا، وأدركت على الفور أنه أحمد.

أجبت بلهفة: إزيّك يا حبيبي، ألف حمد لله على سلامتك.

أتاني صوته شبه مبتسم: الله يسلّمِك يا ماما.

أدركت مسحة حزن في صوته، فسألته على الفور: مالك يا أحمد صوتك متغيّر ليه؟ في حاجة تخصّ الشغل حصلت؟

أجاب بسرعة كعادته كلما ألقيتُ عليه سؤالًا: لا خالص، الشغل كويس جدًا الحمد لله، بس ندى... شكلها اتضايقت مني ومن

تطفّلي عليها... حست إني بتقرب منها، وإني عملت كده بسرعة... شكلها مش مستلطْفاني.

أجبت وقد أدخلت كلماته على قلبي شيئًا من الفرح الممزوج بالاطمئنان: أحسن يا حبيبي، إنت كده كده مسافر علشان تتجوز، وظهورها لخبطك... أهي جت من عند ربنا، وهي اللي قفلت الموضوع، ركّز مع خطيبتك بقى وفي شغلك يا حبيبي، علشان تأمّن مستقبل أولادك كمان.

أتاني صوته تشوبه مسحة من الحزن وعدم الاقتناع: ربنا يقدّم اللي فيه الخير... المهم إنتو كلكم كويسين؟

أجبته بمرحٍ مصطنع: الحمد لله يا حبيبي كلنا بخير.

وتبادلنا بعض عبارات المرح ثم أغلقت الخط، ولكن كان يراودني شعور بعدم الارتياح، فأنا أعلم أحمد جيدًا... فهو ما زال يفكّر بتلك الفتاة التي أقحمها القدَر في عالمه فجأة. شعرت بالغيرة لمجرّد أن جال بخاطري ذكرها، كيف استطاعت أن تلفت انتباهه وتحتلّ عقله في تلك المدة الزمنية القصيرة؟ وما الذي فعلته لتصل إليه؟ عدت أسترجع ما قاله عنها كلمةً كلمة في استنكار، ثم نفضت رأسي وكأنني أنفض معها فكرة وجود إنسان نقي في تلك الحياة، فلو كان من المفروض أن يوجد شخص مميز، جذاب، يُعجب به من يراه ويتعلق به من الوهلة الأولى التي يراه فيها فهو أنا وليس غيري...

حاولت ألّا أفكّر في الأمر أكثر من ذلك بعد أن وصلت لنقطة أنها لم تدعه يتخطى حدّ العمل معها، وتعلقتُ جدًا بتلك الفكرة ونفضت

الأمر برمته من ذهني... ولكن ظلّ بداخلي شعور مبهم بعدم الاطمئنان، وهو شعور مريب...

وللغاية...

كانت الأيام تسير على نفس وتيرتها، لم يتغير شيء. أنا وأمير على نفس الصراع الصامت منذ أن أصبحتُ زوجته عندما قررت أن أقوم بدور الرجل في الحياة وتركته هو يمارس دور المُعال، وتصدّرتُ أنا المشهد، وكان هذا تضحية مني من أجل تحقيق أمنيتي في الحياة بتكوين إمبراطورية صغيرة أكون فيها أنا الآمرة الناهية... كما كان الحال في منزل كلٍّ من آلاء وأنس، الأمور تسير برتابة، مع تغيير بسيط وهو أنني بدأت أشعر بكره غير معلن من كل من محمد زوج آلاء وأميرة زوجة أنس ووالدتها... كنت أرى هذا في معظم تصرفاتهم، لا سيما عندما كنت أفرض رأيي في كل صغيرة وكبيرة في حياتهم. مع اختلاف بسيط، فقد كنت أحاول فرض رأيي على آلاء وبيتها ولكنني اصطدمت بمحمد، والذي وجدته يقف لي كحائط صد، وكان يرفض تدخّلي في شؤونه في كثير من الأحيان، ولكنني لم أيأس، وكنت أعاقبه بآلاء نفسها حتى تحولت حياتهم إلى جحيم مستعر ودُمّرت العلاقة بينهم، ولم تنجح هداياه التي كان يمنحها لها من الحين إلى الآخر في أن أكفّ يدي عنهم. كذلك الحال عند أنس، فأنا المحرك الأول للأحداث، حتى أم أميرة زوجته كنت أنا من أحرّكها، حتى وإن بالغت في عطائي، لم أكن لأتنازل عن طموحي في إدارة إمبراطوريتي وعلى الوجه الذي يرضيني...

والحق أقول لكم: لم أكن أحتمل رؤية امرأة مدللة من زوجها حتى ولو كانت ابنتي. فرؤية مثل تلك المرأة كان يؤلمني بشدة لا يتخيلها أحد. فأنا لم أحظَ بالزوج المثالي ولا بالزيجة التي تجعلني ملكة على عرشها. نعم كان هذا اختياري، وهذا ما أردته، ولكن لا بد للجميع أن يدفع الثمن...

الجميع...

ودون رحمة...

كنت أنتظر مكالمة أحمد لي كل يوم، ولكنني تعجبت حين وجدته يحدثني يومًا بعد يوم على غير عادته، ثم أصبحت مرة كل يومين، حتى أصبحت المدة تطول...

والغريب من ذلك أنه في كل مرة كنت أسأله عن فتاته الأجنبية، كان يتهرب من الإجابة متحججًا بانشغاله في العمل، وعدم وجود وقت فراغ للقاءها...

في البداية حاولت إجبار نفسي على تصديقه، ولكن كان هناك صوت في أعماقي يهتف بوجود ما يمنعه... نعم... إنها هي... ندى...

حاولت مرارًا وتكرارًا إسكات هذا الصوت، ولكنه كان يتعالى أكثر فأكثر...

لا سيما عندما وجدت صوت أحمد يتحسن، وكذلك صوره التي كان يرسلها لي عبر تطبيقات الهواتف الذكية. كنت أراه فيها أكثر إشراقًا، وكأن الزمن عاد به للوراء، فأصبح مظهره أصغر من عمره الفعلي،

وهذا ما لم يكن حادثًا عند وجود هالة في حياته. على العكس، حيث كان كل من يراه وقتها يندهش من تلك الأعوام الوهمية التي تركت آثارها على وجهه وجسده معًا، حتى أصبح كهلاً في عمر صغير. ولكن ما أراه الآن يحدث هو العكس، حيث ارتدّ إلى عقده الثاني معها...

لم أتقبّل الفكرة، وشعرت بالغيرة تنهشني من الداخل، ونقلت مشاعري تلك لآلاء عند أول زيارة لها لي، ولأنها ابنتي وتحمل أفكاري، بل إنها تفكر بعقلي وتتشرّب مشاعرها من قلبي وحواسي، وجدت عندها نفس مشاعري تجاه ندى. أعلم جيدًا أن أحدًا منا لم يرها كي نمتلئ تجاهها بكل هذا الحقد، ولكن يكفينا انجذاب أحمد لها، فكلتانا لا تنعم بزواج هادئ. حتى محمد زوج آلاء بدأ ينجذب لغيرها من الفتيات ممن يتمتعن بشخصية جذابة ومستقلة، وكان دائمًا ما يعقد مقارناته بينها وبينهن، وكان دائمًا ما يردد لها مقولة: «بقيتي نسخة من أمك» على مرأى ومسمع من الجميع. فلماذا نحبها وهي دون أي مجهود يُذكر منها استحوذت على قلب ابني ولُبه، وحازت على احترامه وتقديره أيضًا...

أصبحت أنا وآلاء نجري شبه اجتماعات مغلقة لمناقشة وضع أحمد وندى، ولكن كانت صدمتنا عندما وجدت اتصالًا منه يبلغني فيه بأنه سوف يقطع سفره كي يتقدم لندى رسميًا، وما علمته منه أن العلاقة بينهما تطورت، وأخيرًا وافقت ندى على الزواج منه، وبعد أن بدد مخاوفها والتي كان أكبرها خوفها من وجود ثلاثة من الأبناء له، وأنها لن تقدر على تحمل مسؤوليتهم بالإضافة إلى طفلها،

فهي غير مؤهلة لذلك سواء نفسيًا أو جسديًا. ولكنه قطع على نفسه عهدًا بأن لا علاقة لها بهذا الشأن، وأن أمهم هي من تتولى رعايتهم، وأسهب لي في سرد كم هي رقيقة ولطيفة ولن تتحمّل عبئًا كهذا...

كنت أتلقى كلماته وأرد بإجابات مقتضبة حتى لا أشعره بغيرتي، ولكن هيهات، فأحمد كان يثبر أغواري دون أن أنبس ببنت شفة، ففهم ما أشعر به، ولكنه كعادته كلما تعلّق الأمر بمصلحته لم يولني أي اهتمام، وشعرت من صوته اعتزامه على إتمام تلك الزيجة، فهو أخيرًا عثر على مبتغاه...

أغلقت الهاتف معه ونقلت كل ما دار بيني وبينه لآلاء، التي هاجت وماجت ووجدتها تقول باندفاع: «رايح يتجوز... طيب هو كان أمّن مستقبل أولاده؟

أجاب بهدوء: أنا ما صدقت لقيت ندى يا ماما، فيها كل مواصفات فتاة أحلامي من وأنا صغير؛ شكلها، رقتها، طريقة كلامها، كل حاجة فيها زي ما اتمنيتها بالظبط... كإن ربنا باعتها لي عشان يعوضني عن اللي ضاع مني مع هالة.

أطلتُ نظرة غيرة واضحة من عيني وأنا أقول: يا سلام... كل ده... كأنك أول مرة تشوف واحدة حلوة، وبعدين مفيش حد كامل...

قاطعني أحمد بهدوء قائلاً: على فكرة يا ماما أنا اتواصلت مع طليقها عن طريق واحد صاحبي بيشتغل معاه، وعرفت منه إن سبب الطلاق مش هي خالص، هو بيقول إن والدتها ست متحكمة وهي السبب في اللي حصل، يعني ندى مالهاش أي ذنب.

أهداني أحمد تلك الكلمات على طبق من ذهب فأجبته في ظفر: يعني أمها متحكمة ومُتسلطة، يعني هي اللي ممشّياها؟ ويعني هتعمل فيك زيّه وتطلقوا برضو؟

هز رأسه نافياً ثم قال: لا يا ماما، ندى أصلاً ما كانش في بينها وبينه أي توافق، علشان كده هي استسلمت لوالدتها وسابتها تعمل اللي هي عايزاه لغاية ما انتهى الموضوع بالطلاق.

أسرعتُ أقول: يعني والدتها فعلاً ست مسيطرة، وإنت هتقدر تتعامل معاها؟

أومأ برأسه علامة الإيجاب قائلاً: بإذن الله.

ثم تنهد وأردف قائلاً: أنا كل اللي يهمني ندى، عايز أنسيها اللي حصل لها وأرجّع لها ثقتها في نفسها، وأخرجها من تحت سيطرة والدتها اللي شكلها مدمّراها من وهي صغيرة.

لمحتُ التمسك بها في كلماته فاتجهت إلى الخطة البديلة واندفعت قائلة: طيب وأولادك؟! إنت ناسي إنك ما عملتش أي حاجة لسه ليهم؟ يعني لسه ما أمنتش مستقبلهم، هتسيبهم وتروح تبدأ جوازة من الأول تصرف فيها كل اللي معاك؟

أجاب وقد فهم المغزى من كلامي: ما أنا كده كده كنت مسافر علشان أتجوز... إيه الفرق بقى؟

قاطعته في حدة: الفرق إنك كنت هتتجوز واحدة تساعدك وكانت هترفعك وتخليك تتغنى، لكن دي هتخليك تصرف اللي وراك واللي

قدامك، وإنت بتقول إن أبوها غني يعني عايز واحد يعيش بنته في نفس مستواها...

قاطعني بحدة: كفاية يا ماما، مش كل حاجة الفلوس! أنا تعبت وحاسس إني بقيت عامل زي ثور في ساقية، بشتغل وبس... في سن صغيرة لقيت نفسي مسؤول عن أطفال وزوجة استنزفتني مادياً ومعنوياً، وكمان وأنا بطلقها خدت مني نص الفلوس اللي جمعتها من أول لما بدأت شغل... كتير عليّ أحب وأتحب؟!

تعمدتُ استفزازه وأنا أقول له: ما حدش أجبرك على حاجة، هالة كانت اختيارك وكلنا كنا رافضين.

قاطعني مرة أخرى قائلاً: خلاص يا ماما، اللي حصل حصل...

وهمَّ لاستكمال كلماته، ولكن قاطعه أمير وقد سمع من مضجعه احتدام النقاش فيما بيننا فأتى مسرعًا وهو يقول: في إيه يا جماعة؟ صوتكم عالي كده ليه؟

أجبته في حدة: البيه بوّظ جوازته من البنت الأجنبية اللي كان عايز يتجوزها، وجاي عايز يتجوز ندى اللي عرفه عليها أمجد صاحبه.

أومأ أمير برأسه وغمغم وهو يبتسم: خير ما فعلت يا ابني، أنا ماكنتش مقتنع بجوازك من البنت الأجنبية دي.

رددّت مستنكرة: إيه اللي إنت بتقوله ده؟ دي كان معاها فلوس توزن بلد!

ضحك أمير وقال باستنكار: مش كل حاجة الفلوس يا منى، ابنك من حقه يتجوز واحدة بيحبها وبتحبه.

قاطع حديثنا صوت رنين جرس المنزل، فأسرع أمير يفتح الباب، فإذا بها آلاء تدلف إلى البيت، فابتسمتُ في خبث وأنا أعلم المغزى الحقيقي من زيارتها، فها قد تعادلت الجبهة: أنا وآلاء في مواجهة أحمد وأمير...

بعد تبادل التحيات وعبارات الترحيب والتهنئة بسلامة الوصول، جلست آلاء إلى جواري وكأننا نشكل خط مواجهة لنثني أحمد عما يريد...

بدأت آلاء الحوار موجهة الحديث إلى أحمد: أخبار العروسة إيه؟ نقول مبروك؟

فأجابها أحمد وقد فهم ما ترمي إليه: لا، أنا مش هتجوز برا مصر.

أجابت في خبث وبطريقة لا يمكن لأحد أن يفرّقها عن طريقتي: إيه ده؟ هي وافقت إنها تتجوز في مصر؟ ده خبر جميل جدًا.

أجابها أحمد بمكر: انتي عايزة تفهميني إن ماما ما قالتلكيش حاجة؟

وهنا اندفعت آلاء قائلة في حدة: إنت ناسي أولادك؟ إنت عايز تتجوز وتسيبهم؟

وهنا كانت الانفجارة التي لم نتوقعها، وكانت المفاجأة من نصيبنا أنا وآلاء، فقد اندفع أمير بحدته التي لا تظهر إلا إذا كان الأمر يخص أحد أبنائه، وقد انتبه إلى مدى الضيق الذي شعر به أحمد بسبب

كلامنا، لكنه لم يظهره احتراماً لوالده، واكتفى بأن ترك كوباً كان يرتشف منه الماء في صرامة وهو يعقد حاجبيه وكأنه يعزي الأمر برمته لأبيه لكي يتدخل، وهو ما فعله أمير بالفعل، حيث انطلق صارخاً في حدة: مش مطلوب من أي واحدة فيكم إنها تقول رأيها! دي حاجة تخص أحمد لوحده! دلوقتي بتقولوا أولاده؟ ما هو كان مسافر يتجوز أصلاً... ولا انتوا نسيتوا؟ وأنا مكنتش موافق على المبدأ من أساسه بس ما اتكلمتش وقلت هو يتحمل نتيجة قراره لأنه ما بقاش صغير... اللي فيكم عنده كلمة كويسة يقولها، واللي معندوش يتفضّل يسكت خالص!

ثم ازدرد لعابه واستطرد هاتفاً: أنا سألت على البنت وعلى أهلها، وعرفت إنهم ناس محترمين جداً، ووالدها أشهر من النار على العلم وسمعته سابقاه.

ثم اختلس النظر إليّ وضغط على كلماته ببطء قائلاً: وزي ما انتي بتحبي... غني يا منى... ارتحتي؟

لم أستطع النطق بعد كلماته، ولكنني أطرقت برأسي في استسلام بعد أن تبادلت النظرات مع آلاء التي لم يكن يفهمني سواها، وأصبح علينا نحن الاثنتان تقبل الأمر، والتعامل مع ذلك الملاك المتمثل في هيئة فتاة ـ على حد وصف أحمد ـ علاوة على عدم إظهار أي مشاعر غيرة لها...

أو لأحمد... الذي كان يشعر بها منذ أن بدأت تشتعل في داخلنا...

إن لم يكن قبل ذلك...

وجاء اليوم الموعود، والذي كان قد حدده أحمد مع والد ندى لأول لقاء بيني وبينها. امتزجت مشاعري في هذا اليوم بين فضول لرؤية هذه الفتاة التي احتلت وجدان ابني وسيطرت عليه حدّ الهوس، والغيرة لنفس الأسباب أيضاً، وخالط هذين الشعورين شعورٌ جديد باللهفة لموافقة ندى وأهلها، فما علمته عنهم جعلني أغير موقفي وأطوق إلى أن أصبح جزءاً من عائلتهم. فوالدها رجل شديد السخاء لعله يفوق والد محمد ووالدة أميرة ـ صهرا ابنائي الآخرَين ـ سخاءً... لا يتأخر عن بذل أي مال في سبيل إسعاد أبنائه المتمثلين في ندى وأخيها تامر فقط، ومما علمته أيضاً أنه كان سخياً جداً مع طليقها وأهله على الرغم من كل ما تسببا فيه لابنته من ألم، وكأنه كان يحاول بكل طريقة ممكنة الحفاظ على بيت ابنته من الخراب شأنه شأن أي رجل فاضل لحماية بيت ابنته، حتى إنه بلغ به الأمر أنه كان يتكفل بجميع مصروفات ابنته وابنها من مأكل وملبس وعلاج وترفيه، على الرغم من وجود زوجها الذي لم يخجل من ذلك ولم تهتز رجولته قيد أنملة محاولاً القيام بمهامه كزوج وأب، بل على العكس كان يرى أن ذلك درب من التفوق والحذاقة، وكثيراً ما كان يفخر بهذا في جلسات سمرة مع أصدقائه. وهنا ومضت في رأسي الفكرة... فمن بذل كل هذا لرجل دمّر ابنته، فهو بالتأكيد سوف يبذل ما هو أكثر منه بكثير لرجل يحب ابنته، بل وأحبته ابنته أيضاً.

شردت وأنا أُمني نفسي بما سمعته عن جود وكرم هذا الرجل، ولكنني أفقت من شرودي على صوت أحمد وهو يهتف في لهفة: كل ده يا ماما؟ معقولة حضرتك لسه ما خلصتش؟

أجبته وأنا أرتدي الكثير من الحلي الذهبية الخاصة بي: خلاص يا حبيبي قربت أخلص أهو.

تعجب أحمد مما تعمدتُ ارتداءه من مشغولات ذهبية وحلي، وغمغم قائلاً: إيه كل اللي حضرتك لابساه ده يا ماما؟ إحنا رايحين النادي، حضرتك نسيتي إننا هنقابلهم هناك ولا إيه؟

ابتسمت ابتسامة ذات مغزى وأقول: مش لازم أشرفك قدام نسايبك؟ ولا عايزهم يقولوا علينا مش قدّ المقام؟

أدرك ما أقصده من كلامي فقال باستنكار مرح: يا ماما، الناس دي ما بتفكرش كده، ندى عمرها ما اهتمت بالمظاهر، وإلا ما كانتش اتطلقت من واحد مليونير.

أجبته بمكر وما زالت تلك الابتسامة على وجهي: هي مبتهتمش بالمظاهر... بس واضح إن أمها مش سهلة وتركّز في كل حاجة، وندى دي مجرد لعبة في إيدها بتحركها زي ما هي عايزة.

غمغم قائلاً: أنا مش فارق معايا غير ندى يا ماما... أستأذنك بسرعة علشان ما نتأخرش، لازم نكون هناك قبلهم.

أطلقت ضحكة مرحة وأنا أقول له: مستعجل قوي... هي سحرت لك ولا إيه؟ طيب يا سيدي، أنا خلصت خلاص.

ضحك في مرح، ثم انطلقنا إلى وجهتنا...

وصلنا إلى النادي وجلست أداعب أحمد: مش هتوصفها لي بقى؟

أجاب في مرح: كلها نص ساعة يا ماما وتيجي... وحضرتك هتشوفيها بنفسك.

أومأت برأسي وأنا أبتسم في جزل قائلة: ماشي يا سيدي، لما تيجي نشوف.

وجلسنا نتبادل عباراتنا المرِحة أنا وهو وآلاء وأمير، حتى رنَّ هاتف أحمد معلنًا وصول ندى وأهلها، فوجدتُ أحمد يهبُّ واقفًا ويتجه مباشرة نحو بوابة النادي ليستقبلهم، وما هي إلا دقائق حتى وجدته يأتي إلينا تجاوره فتاة جميلة بحق، شديدة الرقة، رقيقة القوام ممشوقته، تمشي على استحياء لم يخلُ من لمحة ثقة واعتزاز، تتأخر عنه بخطوة واحدة مفسحة له المجال بأن يتقدمها ليدلها على المكان الذي نجلس فيه، وبجوارها تسير سيدة في منتصف عقدها الخامس، وإن لم يبدُ عليها أن الزمن قد نال منها أي شيء، فهي سيدة جميلة جدًّا، واثقة من نفسها حدَّ الغرور، كان هذا واضحًا جليًّا من خطواتها. يسير وبجانب أحمد رجل في أواخر عقده الخامس أيضًا، أنيق، حليق، وسيم على الرغم من سنوات عمره المتقدمة، ممسكًا في يده طفلًا يبدو أنه ابن ندى وإن كنت لم أقتنع بأن سبق لها الزواج بعد أن رأيتها...

لم أتمالك نفسي ووجدتني أسلّم عليها واحتضنها وأنا أقول: إيه الجمال ده كله يا أحمد، إيه الجمال ده كله! لا عندك حق تقولي استني لما تشوفيها، إنت مكنتش هتعرف توصف بصراحة.

تخضب وجه الفتاة بالاحمرار مما زاد ألقها، وهمست: شكرا يا طنط، ده من ذوق حضرتك.

تنحت الفتاة جانبًا لتفسح لي ولوالدتها المجال كي نتبادل التحيات ونسلّم كلٌّ على الأخرى، وبعد تبادل عبارات الترحيب جلست أتأمل ندى ووالديها وابنها الصغير الذي لم يكن قد تجاوز الأربعة أعوام بعد، ووجدتني أتوجه إلى ندى قائلة بلهفة مستنكرة:

معقولة ده ابنك؟! انتي شكلك صغير قوي!

أطرقت برأسها في خجل ثم أجابت بهدوء وبرقة: أيوة، ده ابني.

هتفتُ مستنكرة: ولا ماما كمان باين عليها سن! انتو كلكم كده! وبابا اللهم صلّي على النبي!

ضحك الجميع لكلماتي التي لاقت صداها لديهم، وبعد الكثير من المرح والترحاب ذهبت لأجلس بجوار والدة ندى، وبالمناسبة هي تُدعى سمر، وتركتُ آلاء تجالس ندى وتتجاذب معها أطراف الحديث، فيما اندمج كلٌّ من أمير وحازم في حوار جانبي آخر، بينما انزوى أحمد يراقب الجميع في صمت مبتسم وكأنه يرصد ردود أفعالنا جميعًا، أو ربما هو خائف من أن يصدر مني أو من آلاء ما يفسد عليه يومه...

كنت أتفرس سمر بتمعن لم أستطع إخفاؤه... أو ربما مظهرها هو ما جعلني أقدم على فعل ذلك، فمظهرها كان جذابًا بحق، وعلى الرغم من سنوات عمرها المتقدمة إلا أنها لم تزل على قدر عالٍ من الجمال وحسن المظهر يجعلان من يراها يستحيل عليه تحديد عمرها الحقيقي، فهي تبدو أصغر من عمرها الحقيقي بعقد كامل على الأقل...

تفحصت ملابسها والتي يبدو عليها أنها باهظة الثمن، وما هذا أيضًا الذي يلتمع هنا... إنه الماس يا إلهي! إنها أول مواجهة بيني وبينه بعيدًا عن الخيال... فعلى الرغم من امتلاكي لأموال تمكنني من شرائه، إلا أنني لم أستطع القيام بذلك قط...

لا أعلم لماذا، فدائمًا ما كنت مقتنعة بأنه لطبقة أعلى من طبقتي ولأناس أرقى مني، حتى وإن كانت لدي القدرة على دفع ثمنه... إنها عقيدة طالما ترسخت بداخلي...

أعتقد أن سمر التمحت انبهاري بها، مما جعلها تبدأ في إظهار نرجسيتها الواضحة عليَّ، والغريب أن هذا غذّى شعوري بالضآلة، ولم أستطع المقاومة أو الاعتراض...

ولكن بعد مجهود شاق ومضنٍ قررت أن أبادر بهجوم قد يضعف موقفهم، أو يجعلني على الأقل أكون الند بالند معهم، فباغتها بسؤال: أومال هي اتطلقت ليه؟

رمقتني سمر بنظرة واثقة واسترخَت في مقعدها واضعة قدمًا فوق الأخرى في خيلاء لم ألحظه على سواها، فزوجها وابنتها كانا مثالًا

حيًّا للتواضع، وقالت: التدخلات... هي السبب في كل اللي حصل ده. تدخلات أهله كانت صعبة قوي، وأمه تحديدًا كانت لا تُطاق، وكانت هي السبب.

تلقيت الجواب ولم أستطع الرد. لم أعلم هل لمست تلك الإجابة شيئًا ما بداخلي؟... هل تعمّدت هي أن تُلقي بالكرة في ملعبي لتعلم سبب انفصال أحمد أيضًا؟ أم هل توصلت بالفعل إلى هالة وعلمت منها شيئًا؟...

لم أستطع إخفاء ارتباكي، ولكنني حاولت تدارك ذلك بأن ابتسمت وهززت رأسي علامة التفهم، ثم قلت محاولة أن تبدو عبارتي لطيفة ومجاملة: ده من حسن حظنا. ده إحنا حنبعتلهم جواب شكر إنهم سابوها لأحمد.

ويبدو أن عبارتي لاقت صدى لطيفًا لدى سمر فضحكت بمرح رزين جدًّا ثم قالت: شكرا لحضرتك... ده من ذوقك.

وانهمكت معها في حوارات جانبية أخرى، ولكنني كنت في الوقت نفسه أرهف السمع من حين لآخر لأسترق السمع للحوار الدائر بين ندى وآلاء، التي سمعتها تقول لندى بخبث ممزوج بمرح زائف: بس اشمعنى وافقتي على أحمد على الرغم من إنك عارفة ظروفه وعارفة المسئوليات اللي عليه... تلات أولاد برضو حاجة مش قليلة.

ولكني رأيت ندى وقد تخضب وجهها بحمرة الخجل وأطرقت برأسها ثم قالت مبتسمة: ارتحت له.

ثم صمتت لبرهة وعادت تكمل: لقيت عنده حاجة كنت بفتقدها بشدة. في بينّا لغة حوار مشتركة، عارفين ندير حوار راقي... بنتكلم وبنسمع بعض. عندنا هوايات مشتركة، ولقيت عنده الاهتمام اللي كنت مفتقداه... حسّيت بأمان في العلاقة.

ظهر شيء من الود على وجه آلاء وتمتمت: فاهمة قصدك.

ولكنها سرعان ما بادرتها بمكر ذو مغزى وقالت مبتسمة: بس كده يعني؟... يعني مش حب؟

تورّدت وجنتاها بحمرة محبّبة وأطرقت رأسها بخجل شديد وغمغمت: خلاص بقى بلاش إحراج... ثم انفجرتا ضاحكتين.

في نهاية الجلسة حددنا موعدًا لزيارتهم في منزلهم، وهناك حيث وصل انبهارنا إلى أوجه، فقد تفاجأنا من مدى فراهة المنزل وأثاثه شديد الأناقة على النحو الذي يجعلك تشعر بأنك جالس في قصر وليس في مجرد شقة سكنية تقبع داخل بناية... تبادلتُ النظرات مع كل من أمير وأنس، والذي أصرَّ على المجيء معنا وحضور تلك الجلسة ورؤية ندى وأهلها، فهو لم يكن رآها من قبل، وإن لمحتُ في عينيه مسحة من الغيرة، ربما لأن زوجته أميرة ليست على نفس قدر جمال ندى، ولا والدتها كانت تشبه والدة ندى، وهذا ما ورثه أبنائي الثلاثة مني... المقارنة... مقارنة أحوالهم بأحوال غيرهم، حتى لو كانت تلك المقارنة تشتعل بين ثلاثتهم... كنت أرى ذلك بعيني منذ صغرهم ولم أتدخل لعلاج تلك المشكلة، على العكس كنت

أشجعهم على ذلك. لم أعلم سببًا واضحًا لهذا، لعلني اعتقدت أن تلك المقارنة تقودهم إلى التفاني في تحسين أوضاعهم... ربما...

وعند عودتنا جلسنا جميعًا في ردهة المنزل، وأخذ أنس يمازح أحمد ويقول بشيء من المرارة المرحة: وقعت واقف... ربنا عوّضك في كل حاجة! مال وجمال وحسب ونسب ودين، بسم الله ما شاء الله!

أسرعتُ أردُّ بالنيابة عن أحمد: الله أكبر... انتا بتحسد أخوك؟

أجاب مبتسمًا وهو يحك رأسه بيده:

لا والله مش قصدي. أنا بقوله بس إن في فرق كبير بينها وبين هالة.

رد أحمد بثقة وزهو: يعني عرفت أختار المرة دي؟

اندفعتُ قائلة: جدًا.

ثم تنهدت وأردفت: بس انت حتقدر تعيشها في نفس مستواها؟... انتا عندك شيلة تقيلة. وخد بالك، هالة لو عرفت بجوازك مش هتسكت.

أومأ أحمد برأسه وشاركه كلٌّ من أنس وأمير، واتفقوا جميعًا على هذا، وقال أمير بهدوء:

خد بالك فعلًا. هالة لو عرفت بالموضوع ده هتعمل مشاكل كبيرة، ومش بعيد تروح لندى وأهلها وتبوّظ الجوازة. خد بالك وحاول ما توصلهاش موضوع جوازك.

وافقه أنس الرأي، واتفقنا على ألا نخبر أحدًا بزواج أحمد إلا أقرب الأقربِين، حتى لا يذيع الأمر بين الناس وصولًا لهالة، التي لم تكن لتتورع عن فعل أي شيء يجعلها تنتقم من أحمد ومني أنا شخصيًا...

سافر أحمد مرة أخرى إلى الخارج لإنهاء ما كان يؤجله من عمله، وقد اتخذتُ عدم وجوده فرصة للانفراد بندى وإتمام دراسة جوانب شخصيتها على أكمل وجه، لأتوصل إلى نقاط ضعفها والتي ستساعدني على إحكام سيطرتي عليها... أعلم أن الأمر لن يكون سهلًا، خاصة في وجود أم لها تتعامل معها على أنها دمية تحركها وفق إرادتها ورغبتها هي فقط، دون أن تضع في اعتبارها مشاعر أو متطلبات ابنتها، كما لو كانت تحقق مجدًا شخصيًا زائفًا عن طريق التحكم في تلك المسكينة.

وهو ما فهمته من طريقة ندى في التعامل، فعلى الرغم من تجاوزها منتصف عقدها الثاني إلا أنها لم تكن قادرة على اتخاذ أي قرار دون الرجوع لوالدتها، وكأن سمر عمدت إلى تدمير شخصيتها، بل وبثّت فيها قناعة تامة بأنها غير قادرة على اتخاذ أي قرارات ولو أبسطها، حتى إذا كان قرارًا متعلقًا بملابس ترتديها أو ماكياج تعتمده...

الغريب والمثير للدهشة أن ندى كانت تتمتع بشخصية قوية إلى حدٍّ ما في مجال العمل، وعلى المستوى الشخصي كانت تجذب انتباه كل من يتعامل معها بحضور قوي وكاريزما ملحوظة، حتى إنها جذبت انتباهي أنا شخصيًا وجعلتني أنجذب لها ونسيت تمامًا وجود أميرة ووالدتها اللتين بدا على كلتيهما حنق صريح تجاه ندى، فقد

توقعتا أن أتركهما ولا أولي إليهما أي اهتمام وأتناسى العِشرة وأنجذب إلى ندى... لا أنكر أن هذا ما حدث، فقد تعلقت بها لا أعلم كيف وأين ولماذا؟ ربما جذبتني برقتها وبراءتها... أو لعلني تعاطفت مع مأساتها... نعم، فوجود أم مثل سمر في حياتها وزوج مثل من كانت معه تكالبا سويًا في تكامل بشع كافٍ لجعل حياتها السابقة أقرب إلى مأساة... وهنا أحكمتُ خُطتي، وعلمتُ كيف سأسيطر تمام السيطرة على ندى، بل لن أُبالغ إذا قلت إنني سوف أُحكم قبضتي عليها...

بطبيعتي العاشقة لدراسة الشخصيات أدركتُ أن ما ينقص ندى هو الثقة بنفسها، فهي شبه مدمرة تمامًا، وهذا يُعزى إلى تربية أمها شديدة التسلط، ومما زاد الطين بِلّة زواجها من ذلك المستهتر، مما أكمل على البقية المتبقية من ثقتها بذاتها والتي كانت حاولت جاهدة الحفاظ عليها عن طريق التفوق الدراسي، ولكن أحدًا منهم لم يرحمها... لاحظتُ أيضًا سلبية والدها، حيث كان جلّ ما يقدمه من اهتمام ودعم ينصب حول تزويدهم بالمال الكافي، والانهماك في العمل كي يوفر لهم المزيد منه ليضمن لهم حياة كريمة، تاركًا جميع أمور أبنائه في يد زوجته التي دمرت ندى وقتلتها ضغطًا، وعلى عكسها تركت الحبل على الغارب كما يقولون لأخيها تامر، مما جعله يصبح شابًا مدللًا غير قابل لحمل أي مسئولية ولا حتى للعمل مع والده، هو فقط خُلِق ليتلقى المزيد والمزيد من تدليل أمه...

إنها فرصتي الآن... لقد منحني القدر زوجة مثالية لأحمد، قابلة للسيطرة وباحثة من تلقاء نفسها عن أي طوق نجاة لإعادة اكتساب ثقتها بنفسها... لديها استعداد قوي للانقياد، تترك كل أمرها لأي فرد تتوقع منه الأمانة والصدق في محبتها، تنفذ كل ما يطلب منها دون مناقشة أو اعتراض حتى لو ضغطت على نفسها حدّ الاختناق، فقط كل ما تريده هو أن تشعر بالقبول من الآخر، لديها قدرة عجيبة على التنازل فقط ليراها الآخرون بعين الكمال، كانت تُرضي الجميع وتتنازل عن أي شيء في مقابل أن تسمع كلمة استحسان... وهذا كان ما انتهجته، فالأمر لا يكلفني شيئًا إلا كلمة طيبة، كانت ندى بعد سماعها على أتم استعداد للقيام بأي شيء أطلبه منها...

تعمدتُ أثناء سفر أحمد أن أدرس هذه العائلة من جميع الزوايا، كي أعلم كيف سأتمكن من الحصول على ما أريد وبالشكل الذي يرضيني... ويا لها من هدية...

عاد أحمد من سفره بعد إتمام عدة صفقات ناجحة وتمت خطبتهما، في حفل مهيب أصر والد ندى على إقامته لإدخال البهجة والسرور على قلب ابنته، سعدنا فيه جميعًا، ثم قرر أحمد ألا تكون فترة الخطوبة طويلة، فعمد إلى الحصول على منزل وتجهيزه في أسرع وقت، فقد تعلق بها حقًا وكان يسابق الزمن حتى تصبح زوجته، حيث أصبح ذلك كل ما يهمه في تلك الفترة...

كنت أراقب معاملة أحمد مع ندى، فقد كانت – حقًا – معاملة لافتة للانتباه، ليس انتباهي فقط بل انتباه العائلة بأكملها، حيث أصبحا مضربًا للأمثال في الحب والاحترام...

كان ذلك يثير غيرتنا أنا وآلاء، والمثير للضحك أننا وجدنا أميرة تنضم إلينا هي الأخرى، خاصة بعد أن دُمِّرت العلاقة بينها وبين أنس، وأصبح عدم التفاهم والصراع الدائم هو شأنهم، وأيضًا آلاء ومحمد لم تكن العلاقة بينهما أحسن حالًا من حال أميرة وأنس، ولكن على أية حال حاولنا جميعًا جاهدين ألا نظهر تلك الغيرة، على الأقل حتى تتم الزيجة على خير...

وبالفعل مرت الأيام سريعًا وتزوج أحمد وندى في حفل أصرت ندى على أن يكون بسيطًا يقتصر فقط على العائلتين والمقربين من الأهل والأصدقاء، أطلت فيه ندى بإطلالة ملكية في منتهى الرقة والرقي، وهو ما لاقى استحساني، فأنا لم أكن أريد أن يصرف ابني مالًا على حفل كبير أو أن يصرف مالًا أصلًا إذا أردنا الدقة، فلماذا لا يتكفل والدها بكل مصاريف الزواج؟ أليس غنيًا كفاية ليفعل؟! ولكن أحمد صمّم على أن يتحمل ما عليه من واجبات مع والد ندى، والذي بدوره لم يبخل بشيء من أجل ابنته، ولكني – إحقاقًا للحق – كنت أريده أن يتحمل تكاليف الزيجة كاملة، ولكن لا بأس، فليتزوجها أولًا ولنا حديث آخر بعد ذلك...

توجه الثنائي الحالم – كما أطلقنا عليهما – لقضاء شهر العسل، ولا أخفيكم سرًا فقد أثار ذلك كالعادة حنقي وآلاء، ولكن ما لاحظناه هو

أن أميرة قررت أن تنتهج نهجًا آخر في التعامل مع شعور غيرتها من ندى، فقد عمدت إلى مُصادقتها وتقليدها في كثير من عاداتها وحتى في طريقة حديثها الرقيقة وغيرها، مما جذبنا جميعًا إليها، وأوعزتُ إلى آلاء للإقدام على ما قامت به أميرة وعلى أن تحذو حذوها، فقد كانت ندى أيقونة تستحق التقليد بحق...

أخذ أحمد يرسل لي صورًا من عطلته مع ندى، كان يظهر فيها جليًا مدى التوافق والحب بينهما، فقد استطاعت ندى أن تأسر لُبّ وقلب أحمد ببراءتها ورقة طباعها دون تصنع أو افتعال، وكان معه كل الحق، فعلى الرغم من مشاعر الغيرة التي سيطرت علينا جميعًا نساءً ورجالًا – نعم نساءً ورجالًا، فنحن النساء شعرنا بالغيرة من شخصية ندى ومن حب أحمد الجمّ لها، وهو ما لم أعهدْه في ابني طيلة حياته، أما الرجال فقد حقدوا على أحمد، والذي ظهر تأثير ندى عليه كوضوح الشمس في كبد السماء، حتى في علاقته بربه فقد جعلته ندى ينتظم في صلاته وعباداته على غير عادته – إلا أننا جميعًا لم نستطع سوى أن نحبها ونقدرها...

عاد الثنائي الناعم من رحلتهما ليبدآ سويًا رحلتهما الجديدة في الحياة، وقد تحولا إلى محور حديث واهتمام العائلة بأكملها...

فأي تصرف من ندى نضعه محل الدراسة والمقارنة، أي كلمة تندّ منها، أي تصرف تراه هي طبيعيًا وفطريًا، ولكننا كنا ننبهر به كما لو كان آتيًا من الجنة مباشرة، لا أعلم لماذا، ولكن كنا جميعًا مبهورين بها...

في البداية كانت الأيام تمر في سلام، أو هكذا جعلتها أنا تبدو، حتى لا أثير حفيظة أو شك أي من ندى أو أهلها، ولكن بعد مرور أشهر رأيتُ فيها تدليل أحمد لها من هدايا ونزهات وحب جارِف بينهما، لم أستطع مقاومة غيرتي أكثر من ذلك، وكذلك كانت آلاء، فعلى الرغم من أن ندى لم تُسئ لأيٍّ منا، بل على العكس، فقد أظهرت حبًا واهتمامًا بنا جميعًا، حيث تعاملت معنا على أننا كيان كامل وجزء لا يتجزأ من أحمد، وعلى الرغم من كل ذلك إلا أنني لم أستطع السيطرة على نفسي ولا على مشاعري، فكلما كان يفرط أحمد في تدليلها أمامنا كلما كنتُ أستشيط غضبًا، ومع كل هدية أو مفاجأة مهما بلغت بساطتها كنتُ أحترق غيظًا، حتى تمنيتُ من كل أعماقي أن يفقد أحمد عمله حتى لا يستطيع أن يقدم لها أي شيء...

نعم... تمنيتها...

ومن كل قلبي...

وكأن الله يعاقبني على السوء الذي بداخلي فقد استجاب لدعواتي...

ألمّت بأحمد أزمة مالية عاتية أطاحت بكل مدخراته فجأة، بل أطاحت بشركته أيضًا...

صُعقت لما حدث... وانتابني شعور عاتٍ بالذنب، حتى إنني اعتزلت العالم ولم أستطع التحدث مع أحد واعتكفت بغرفتي، واكتفيتُ بمتابعة الموقف عن بُعد...

مكثتُ بغرفتي قرابة الأسبوع، لا أقوى على الحديث ولم أتذوق الطعام إلا بالقدر الذي يسمح لي بالبقاء على قيد الحياة...

كان الجميع يظن أن ما ألمّ بي هو حزن على ما أصاب أحمد من فقدان لأمواله، ولكن لا أحد كان يعلم أن الشعور بالذنب هو ما كان يتغلغل في جسدي وينخر عظامي ويؤرق عليّ نومي... ولم يكتفِ بذلك، بل تسلل إلى أحلامي في لحظات غفوتي التي كنتُ أسترقها من أيامي، وأحالها إلى أشد الكوابيس هلعًا كانت تجعلني أستيقظ، وأحدهم يهزني في شدة كي يوقظني من سباتي بعد أن يسمعوا صراخًا مكتومًا أُطلقه أثناء غفوتي...

و أثناء كل هذا كنتُ أتوقع من ندى أن تقفز من المركب تاركةً خلفها أحمد يصارع أمواج الحياة وحيدًا، ولكن على عكس هذا تمامًا، فقد أظهرت ندى أروع مثال للزوجة المخلصة المحبة، فازداد تمسكها بأحمد وأخذت تشد من أزره حتى اشتد عوده مرة أخرى ووقف يصارع الحياة متخذًا قرارًا صارمًا ليبدأ من جديد...

يا إلهي... حتى في الأزمات تظهر ندى وتتفوق عليَّ، ويكون تأثيرها على ابني أقوى من تأثيري... لم يعتبر لكلام أحد سواها... لم يقدر على أن يخرجه من أزمته سواها... لم يبتسم مرة أخرى لأحد سواها...

يا إلهي...

لماذا يعاندني القدر...

لماذا يرسل إليَّ من تنتزع مني ممتلكاتي... تزاحمني في قلب ابني وتستحوذ على كل شعوره ووجدانه...

كيف انتزعها من داخله؟... كيف أعيد إحكام السيطرة على ممتلكاتي؟...

ومما زاد جنوني أنني وجدت أحمد عاد وكأن شيئًا لم يكن، بل وصرّح بها في وجهي ونطقها بمنتهى الهدوء الواثق: الحمد لله يا ماما، قدر الله وما شاء فعل، كفاية إن ربنا راضاني بندى.. هي أكبر مكاسبي، ولو على الفلوس، زي ما عملتها قبل كده أعملها تاني بإذن الله.

لم أتحمل ما قاله، ولم أخفِ عليه ما شعرت به، بل انطلقت أصيح في حنق: يعني خلاص ما بقاليش دور ولا أهمية في حياتك... بقت ندى هي كل حاجة دلوقتي؟

رأيت الدهشة تطل من عينيه وأجاب في حدة: انتي حتى دي مستكتراها عليا... مستكترة إن ربنا بعتلي حد يقف جنبي في عز محنتي... دي حتى ما حسستنيش إني مقصر في حاجة، ومخلية صورتي قدام أهلها في السما، أي فلوس بتاخدها من والدها بتساعد بيها في البيت وبتجيب أي حاجة ناقصاها أو ناقصاني أو ناقصة البيت، وبتقول لأهلها إن أنا اللي جايبها، عمرها ما طلبت مني حاجة، ولا حملتني فوق طاقتي، عايزة إيه أكتر من كده؟

ثم هب واقفًا فجأة واندفع خارجًا من المنزل مخلفًا وراءه صوت الباب الذي قفله بعنف وتردد صداه في المكان...

ظللتُ مشدوهة مما حدث، عاجزة عن الحركة، ولم يكن أحد معي في المنزل حتى يحكم فيما نشب بيننا... حسنًا يا أحمد، لقد نعمتَ بحياة هادئة لأشهر طويلة مرت عليَّ كدهر، والآن حان دوري...

بعد دراستي لطبيعة شخصية ندى علمتُ أن الثغرة الوحيدة فيها هي الخوف... نعم الخوف... الخوف من المجهول... من المستقبل... وطبيعة الحال فالمرء عدو ما يجهله، وفي حالة ندى، وفي عدم استقرارها النفسي وتعلقها الشديد بأي كلمة تطمئنها وتهدئ من روعها، فقد علمتُ كيف سأنتقم...

ومن الجميع...

كانت ندى دائمة الزيارات لي وكم كنت أعشق هذا، فهذه الساذجة كانت تجيب على كل أسئلتي بصراحة تامة وأنا لم أكن أريد أكثر من ذلك...

كنت أمطرها أسئلة عن طليقها، حجم ثروته، أسباب الطلاق – ولم أيأس من تكرار الكلام في هذا الشأن مرارًا وتكرارًا حتى لو توسمت الضيق في ملامحها، لم أكن أرحمها من تذكر كل ذكرى سيئة لها معه – حجم ثروة والدها، ولم يرق لي كثيرًا ما سمعته منها من عدم علمها وعدم تدخلها فيما لا يعنيها، وأنها تكتفي فقط بأن والدها يبذل ما في وسعه ليوفر لهم حياة كريمة ولا يحرمهم من أي شيء... ما هي ممتلكات والدها؟... وما تمتلكه هي من ذهب ومجوهرات ووالدتها أيضًا؟... بل وامتد الأمر لأسألها عن ممتلكات جدودها خاصة بعد أن علمتُ أن جدها لأمها من أعيان الصعيد، وأن والده كان يحمل

لقب باشا في حقبة ما قبل الثورة... كنت أسعى لأحصل منها على كل ما أريد لأكمل الصورة أمامي وقد عظُم وحش الطمع بداخلي ووصل لأقصى درجات النهم.

حتى لاحظتُ ضيق ونفور ندى من مجالستي فقررت أن أهدأ من حدتي حتى لا أفقد خيوط اللعبة...

تركتها لزيارتين متتاليتين دون أسئلة، ولكنني اتجهت إلى وضع السم في العسل، وأنا ماهرة في دس محاقن السم تحت الجلد...

ففي زيارة منها تعمدت أن أرسل أحمد لقضاء شيء لي، وقد رحب هو بذلك معتبرًا الأمر نوعًا من الاعتذار لي بعد ما بدر منه من انفعال معي، واختليت بها قائلة في خبث بصوت يشبه فحيح الأفعى: خدي بالك يا حبيبتي، أحمد دلوقتي مش زي زمان، أنا عارفة إنك بنت ناس وعينِك مليانة، بس مفيش داعي للخروج والطلبات من أي نوع، وانتي أصلًا مش محتاجة، باباكي مشبعِك ومالي عينِك.

ثم صمتُّ وقلت بلهجة خاصة كمن أرادت عمل وقيعة: هو ما اشتكاش من حاجة بس أنا قولت أنبهِك، انتي كده كده فلوسِك في جيبك وباباكي بيديلِك فلوس، أي حاجة تحتاجيها هاتيها، وماتقوليلوش على كل طلبات البيت، اللي يلاقيه هو ناقص يجيبه، واللي ما يجيبوش هاتيه إنتي.

التمعت عيناي في ظفر حين وجدتُ ندى تسهب في التبرير وكم أنها لا تطلب منه شيئًا ولا تحمله ما لا طاقة له به، وعلمتُ جيدًا أنني

حصلت على مرادي، فقد أشعلتُ بداخلها عقدة الإحساس بالذنب، وهو ما أردته...

ذلك وحده كفيل بأن يحيل حياتهم إلى جحيم...

وأنا هنا أعني تمامًا ما أقول...

كانت هذه هي النغمة التي أدمنتها، وهذا هو الوتر الذي ألفتُ اللعب عليه... عقدة الذنب التي صاحبت ندى منذ نعومة أظفارها نتيجة الأفكار الخاطئة التي رسختها فيها أمها، حيث جعلت منها كائنًا يشعر بعدم الاستحقاق... عدم الاستحقاق في كل شيء، حتى في أبسط أمور حياتها، فهي على يقين تام بأنها لا تستحق شيئًا ولا حتى الاستقرار العائلي...

أدمنت تهديدها والتلاعب بنفسيتها، كنت أستعذب ألمها النفسي، وعندما كنت أشعر بنيتها في الابتعاد، كنت أعاود أدراجي سريعًا واستدرجها لملعبي مرة أخرى، ولم يكن هذا يكلفني سوى بضع كلمات طيبة ومجاملات عابرة، كانت تروي ظمأها الشديد للشعور بالتقبل...

تحمستُ جدًا لما أفعله خاصة بعد أن صارحني أحمد في واحدة من زياراته وتعجب من نوبات اكتئاب أصبحت تصيب زوجته، لا يعلم سببها، صاحبها شك دائم وعدم اطمئنان منها بقدرته على توفير متطلبات الحياة، كنت أرقص طربًا بداخلي، فإذا تحملها أحمد الآن فهو لن يتحملها بعد ذلك، وسرعان ما ستتحول حياتهم إلى صراع

دائم، وهنا لن يجد سواي لأكون ملجأه وملاذه، والصدر الحنون الذي يحتويه...

ساعدني على ذلك بعض خلافات بدأت تنشب بين أحمد وسمر والدة ندى، نظرًا لمحاولة أحمد تخليص زوجته من براثن أمها وسيطرتها عليها، ومحاولاته الجاهدة لمساعدة ندى في استرجاع ثقتها بنفسها، وهو ما لم يلقَ استحسان أم تتغذى على امتصاص طاقة ابنتها، حتى إنها في بعض الأحيان كانت تعاقبها بحرمانها من زيارات ابنها وتواجده معها ومع أحمد في منزلهم حتى ولو لبضع ساعات، كل هذا كان يصب في صالحي، ولكن... حتى ومع حدوث بعض المشكلات بينهم كنت أجدهم سرعان ما يحتوونها، بل وتصبح علاقتهم أقوى وأمتن، في تلك الأثناء حدثت مفاجأة مدوية...

هالة...

تلك المأفونة التي وجدت من يخبرها بكل ما حدث وبزواج أحمد أيضًا، وكما توقعنا جميعًا... تواصلت مع أحمد أكثر من مرة وبذلت جهدًا خارقًا لمحاولة إقناعه بالعودة معًا مرة أخرى... كم ترجته ووعدته بالتغيير، وبأنها ستتعلم كيف تصبح زوجة وأمًّا في المقام الأول حتى لو اضطرها الأمر للتخلي عن عملها وطموحها... يا إلهي... كم شعرتُ بالنشوى لرؤيتها غارقة في بحر من الذل أمواجه المتلاطمة تغمرها بالندم وتدفع بها لتستقر طريحة صخور من القهر... ولكن ما أثار دهشتي أن أحمد حدثني بأنها هاتفته ثلاث

مرات، كل مرة منهم دامت مدة المكالمة لقرابة الثلاث ساعات، لا أعلم حقًا لماذا منَحها كل تلك الفرص لاستجدائه، وكيف تحمل سماع صوتها طوال تلك المدة وهو الذي كان ينفر من مجرد ذكر اسمها... ربما لأن ذلك يشبع شيئًا من رغبته في الانتقام... أو لعله يجبر شرخًا صنعته في رجولته... من يدري...

ولكن ما أثار دهشتي وجعلها تبلغ ذروتها هو موقف ندى، التي تحلَّت بثبات انفعالي يحسدها عليه أقوى رجال المخابرات في العالم، فقد تعاملت مع الأمر بهدوء شديد، وكأن تلك المحادثات كانت تجري بين أحمد وصديق عمره حسام، إنها لم تُعرِ الأمر اهتمامًا بالمرة، وذات يوم هاتفتها لعلي أجد طريقًا لإثارة غيرتها، وعندما أتاني صوتها وجدتها ترد عليَّ بصوت مرح مرحِّب كعادتها: أهلا يا ماما، إزي حضرتك؟

تعجبتُ لهدوئها ومرحها وأجبت بهدوء مدروس: الحمد لله... ازيك إنتي يا حبيبتي، طمنيني عليكي.

أردفت ونبرة المرح لم تفارق صوتها: الحمد لله رب العالمين أنا كويسة.

أسرعتُ بنفس الهدوء المدروس: والبيه بتاعنا أخباره إيه؟

ردت وهي لم تزل محتفظة بمرحها: كويس الحمد لله.

اندفعت أقول في مكر: هو مش هيبطل عمايله دي بقى؟... مفيش فايدة... هيفضل طول عمره مجنني كده.

توتر صوتها وسألت باهتمام: إيه اللي حصل يا ماما، أحمد عمل حاجة؟

أجبت في حدة ماكرة: الست هالة طليقته اللي بيكلمها دي، وبيطوَّل معاها في الكلام كمان.

ندَّت منها تنهيدة ارتياح وقالت: خضيتيني يا ماما، أنا افتكرت إن في حاجة بجد.

أردفت بدهشة حقيقية هذه المرة: افتكرتي إن في حاجة بجد؟!

ثم ارتفع صوتي بغتة وأكملت: هو في أكتر من إنه يكلم طليقته ٣ مرات، كل مرة منهم يظل يكلم فيها ٣ ساعات؟

عاود المرح صوتها مرة أخرى وقالت: دي مسكينة، ربنا يعينها على دماغها.

تعجبت حقًا لبرود أعصابها، ولم أعلم أهو برود فعلا أم ثقة مطلقة، وهتفت في حدة: مسكينة، دي جاية تخرب بيتكم.

أجابت بنبرة باردة كنصل سيف حاد اخترق أعماقي ومزقها: يا ماما، أحمد بيحبني وأنا متأكدة إن كلامها كله مش هيأثر فيه.

ساد صمت ثقيل قطعه هي بنفس النبرة الباردة: وبعدين ماتنسيش حضرتك إن في بينهم أطفال وأحمد متعلق بأولاده، وهي بتضغط عليه بالكارت ده.

تمتمت في ذهول: أنا عمري ما شفت ست زيك كده.. إذا كان أنا أمه وغيرت.

ضحكت في مرح طفولي وأجابت: أغير ليه، أنا عارفة إن أحمد بيحبني، وبعدين لو كان عايز يرجعلها كان ممكن يوفر على نفسه تكاليف جوازه تانية ويكمل معاها.

غمغمت: ده إنتي مالية إيدك منه أوي.

أجابت بثقة: أنا واثقة في أحمد جدًا، وهو إنسان محترم، مش هيعمل حاجة تضايقني أو تجرح مشاعري.

لم يرق لي ما قالته، ولكنني لم أظهر ذلك، فمنحتها جملة إطراء وأسرعت لإنهاء تلك المكالمة، التي كادت أن تفتك بي... ما كل هذه الثقة التي تتحدث بها؟... أإلى هذا الحد هما عاشقان؟... جلست لأراجع كل كلمة تفوهت بها حتى وصلت إلى نقطة أولاده... نعم... أولاده، أولاده هم نقطة ضعفه الوحيدة في علاقته بهالة...

وهنا اتخذت خطتي منعطفًا آخر...

من يعرفني جيدًا سيعلم أنني على الرغم من الحب الجم الذي أظهره لندى، إلا أني لم أكره أحدًا بقدر ما كرهتها... فهي الوحيدة التي نازعتني في قلب أحمد، والوحيدة التي لها مفعول السحر عليه، والوحيدة القادرة على أن تجعله يعدل عن أي قرار يتخذه، ولكن، لدينا هنا آفة تحتاج إلى مكافحة، فضغط تلك الرقطاء هالة عليه سوف يتضاعف إذا استخدمت سلاح أبنائه لتضربه به، وهنا تفتق ذهني إلى فكرة... لماذا لا أجعله ينجب من ندى طفلًا يسحب انتباهه من أبناء هالة، ويجعله يستطيع التخلي عنهم ولو لبرهة من الزمن إذا شرعت هالة في الضغط عليه بهم، ومن ناحية أخرى،

سيكون هذا الطفل مشاركًا له في حب واهتمام ورعاية ندى، وهو ما سيجعله لا يشعر بالراحة معها، ومن هنا يحدث الشرخ... يا لها من فكرة، ستجعلني اصطاد حفنة من العصافير بحجر واحد...

في تلك اللحظة، لو كان قدر لأحد أن يراني، لرأى عيني وهي تلتمع ببريق مخيف... بل مرعب...

في صباح اليوم التالي، وخلال اتصالي الهاتفي الذي أجريه مع أحمد، والذي أتعمد أيضًا أن أجريه معه أثناء تواجده في عمله، تعمدت إظهار شيء من التعب في صوتي كعادتي كلما رغبت أن يزورني، ولكن من تلقاء نفسه دون طلب مباشر مني، فما كان منه إلا أنه هرول للاطمئنان علي بعد انتهاء ساعات العمل...

ما أن رأيته حتى غاليت في إظهار المزيد من الضعف والوهن، ولازمت فراشي.

اتجه إلي بلهفة وتوتر بالغين قائلا: خير يا ماما، ألف سلامة عليكي، مالك؟

أجبته في وهن مصطنع: مفيش حاجة يا حبيبي، سلامتك.. شوية إرهاق بس، اشتغلت في البيت شوية وظهري وجعني.

أردف بلهفة من يخشى على رئته التي يتنفس من خلالها: يعني حضرتك كويسة، مفيش حاجة تعباكي غير ظهرك؟

أجبت في ألم زائف وأنا أعتدل في جلستي: العظمة كبرت يا حبيبي.. يلا حسن الختام.

امتقع وجهه بعد سماعه لتلك العبارة المتعمدة، فأنا أسحب منه الأكسجين الآن بمجرد جعله يتخيل وفاتي.

اندفع في هلع: ماتقوليش كده يا ماما، بعد الشر عليكي، بلاش كلام في الموضوع ده علشان خاطري.

كدت أخرج عن تمثيلي وأطير من فرط السعادة التي تملكتني وأنا أراه متلهفًا علي، ولكنني تمالكت نفسي، وأخفيت شبح ابتسامة نَدَّت مني دون إرادتي، واكتسى صوتي بلمحة جادة وأنا أقول باهتمام بالغ: هو إنت ليه ما خلفتش إنت وندى لغاية دلوقتي يا أحمد؟

قلب كفيه قائلا: مفيش يا ماما، بس أنا عندي أولاد الحمد لله، وهي كمان عندها ولد، فقررنا إننا نأجل شوية ونعيش حياتنا، لو حسينا إننا محتاجين طفل ممكن نفكر.

ثم صمت لبرهة وأردف قائلا: وبعدين حضرتك ما تنسيش إن ظروفي دلوقتي اتغيرت وببدأ من الأول.

بدا علي تأثر مدروس وأنا أقول له: حرام عليك يا أحمد، ندى غلبانة، وإنت شايف أمها عاملة فيها إيه.. دي بتذلها بابنها، وتقريبا مانعاه يزورها إلا تحت إشرافها.. صحيح ست ظالمة ومبهدلة ندى من صغرها ومش مكفيها.. دي بتنتقم منها زي ما تكون مش بنتها.. نرجسية أوي.

أومأ برأسه متفهمًا ثم زفر قائلا: حاضر يا ماما، هفكر.. بس حضرتك عارفة أنا متعلق بندى جدًا، ووجود طفل هيسحب جزء كبير من اهتمامها وتركيزها.

خفق قلبي بشدة عندما وصل بحديثه إلى تلك النقطة، فها هي رغبتي تلوح في الأفق...

أردفت بسرعة: حرام عليك يا أحمد، ندى محتاجة طفل يعوضها أمومتها اللي حرمتها منها أمها، ما تبقاش أناني.

هز رأسه علامة الفهم قائلا: حاضر يا ماما.. ربنا يقدم اللي فيه الخير.

لم أرد إطالة الحديث في هذا الأمر أكثر من ذلك، حتى لا أثير شكوكه، فأدرت دفة الحديث بسرعة وسألته عن عمله وعلمت منه أن الأمور أخذت في التحسن شيئًا فشيئًا، حمدت الله ودعوت له وتسمرنا لبعض الوقت ثم انصرف عائدًا إلى بيته بسلام، وأنا أعلم جيدًا أنه وضع كلامي في عين الاعتبار...

مرت الأيام، وأنا أُدعم خطتي ببعض الملاطفات، كأن أرسل له مقاطع مصورة لطيفة لأطفال حديثي الولادة أو أقص عليه قصة وهمية لصديقة لي أنجب ابنها الطفل الرابع أو الخامس كي لا يشعر بأنه الوحيد في هذا الشأن، بل وبدأت أطلعه على بعض الأسماء الحديثة للمواليد...

بدا لي وقد اقتنع بالأمر، إلا أن شبح فقدان اهتمام ندى ظل يطارده، ولكنني كنت أتعمد الإقلال من هذا الشأن معللة ذلك بأن ندى امرأة

ذكية وتعرف كيف تدير منزلها، وكيف أنها ستجد وقتًا لرعايته والاهتمام به، كما أنها أيضًا تحبه، وتتلهف لأن يكون لها منه طفلًا يجمعهما...

وبالفعل مر الوقت، وفي أحد الأيام وجدت أحمد يهاتفني ويبشرني بخبر حمل ندى، فمنحته فرحة تهللت لها أساريره وكأنه يبشرني بقدوم طفله الأول، تعمدت إظهار فرحتي للجميع وأخذت أخبرهم كم تمنيت لو كانت ندى هي الزوجة الأولى لأحمد وأم أول طفل له، فهي نعم الزوجة ونعم الأم ونعم الاختيار حقًا...

حتى أثارت كلماتي دهشة الجميع، لا سيما آلاء وأمير، وهما أكثر اثنين على دراية بحقيقة مشاعري تجاه ندى ومدى غيرتي منها، وعندما سألتني آلاء عن ذلك بدهشة ماكرة، منحتها ابتسامة خبيثة ونظرة ذات مغزى جعلتها تدرك ما أرمي إليه على الفور، في حين اكتفى أمير بضحكته البلهاء المعهودة والتزام الصمت، والجلوس على مقاعد المتفرجين...

كلما تقدمت ندى في شهور حملها، كلما كنت أرى تغيرًا تدريجيًا في معاملة أحمد معها، حيث قل اهتمامه وزاد توتره بشكل ملحوظ، جعله دائم الهجوم عليها دون أسباب واضحة، كما أنه عمد إلى اختلاق مشكلات بلا داعٍ لإثارة غضبها، ولكن الحق أقول لكم، كانت ندى بارعة بحق، فقد كانت تدير انفعالاته بمنتهى الاحتواء والحكمة، وهو ما جعلني على الرغم من سعادتي بالتغيير الذي حل على علاقتهم، إلا أنني كنت أقف معجبة جدًا بطريقة إدارتها لغضب

أحمد، حيث تعمدت تجاهل الكثير من ثوراته وعناده، ولم تبح ولم تشتك لمخلوق أفعاله، بل ولم أرها في يوم إلا في كامل أناقتها كعادتها دوما، وهو ما كان يثير حنقي دائمًا، حتى أصبحت آلاء تدعوها ندى المتألقة دائمًا، وبالإضافة إلى أناقتها، لم تفارق وجهها أبدًا ابتسامتها المرحة ولا براءتها المعهودة...

كان أمر ندى يشغلني كثيرًا، هل هي حقًا ما تبدو عليه؟... أم أنها مجرد ممثلة بارعة، تدعي كل ذلك لغرض ما في نفسها؟... و لكن كل ما أعرفه الآن أن خطتي نجحت واستطعت إصابة علاقتهما في مقتل...

في الأشهر المتبقية من حمل ندى، كان أحمد يبذل جهدًا خرافيًا ليبدو مهتمًا بها، لكنه فشل فشلًا ذريعًا في ذلك، حتى جاء اليوم الموعود... يوم أن وضعت ندى طفلتها... لم ألحظ على أحمد أي بادرة قلق أو اهتمام، ولم أكن أنا الوحيدة التي لاحظت ذلك، بل إن أحدًا من الحضور أيضًا من والد ندى ووالدتها وندى نفسها، بل كان ما يسيطر عليه غضب وتوتر لم يدرك معناه أحد سواي... فأنا من وضعت الخطة، وها أنا أجني ثمار زريعتي...

بعد أن خرجت ندى وطفلتها بسلام من غرفة العمليات، رغم ما كانت تعانيه ندى من متاعب أثناء الحمل جعلت الطبيب يجري لها أكثر من عملية جراحية في آن واحد، إلا أن الطبيب طمأننا عليهما وانصرف...

لم يكن من أحمد بعد أن اطمأن على طفلته وزوجته إلا أنه جلس قليلًا، حتى استفاقت ندى صامتة لا يحمل وجهه سوى تعبير متوتر حاول إخفاؤه خلف ابتسامة بدت باهتة، وبعد أن انصرف الجميع إلا والدة ندى التي كانت ستبيت معها ليلتها في المشفى لرعايتها وابنتها، وعلى الرغم من توقعي بأن يبادر أحمد بالقيام بذلك، إلا أنني فوجئت به فور عودتي إلى المنزل يدق الباب ويدلف مستأذنًا أن يبيت معنا تلك الليلة... أخيرًا...

قلبي يرقص طربًا...

عودة الابن الضال...

عاد أحمد إلي مرة أخرى...

وعاد معه الفرح والسرور...

أقمت شبه احتفال على شرف حضوره، ظاهره الاحتفال بابنته الجديدة، أما باطنه فكان بميلاد ابني للمرة الثانية... وعودته إلى أحضاني...

كنت أعلم تمام العلم أن هذه المرة تختلف عما سبقها، ففي الماضي كانت هالة تقف عائقًا بيني وبينه... لم تفسح لي المجال كي أستعيده، وأتركه لها في الوقت الذي أحدده أنا... أما عن ندى فالوضع مختلف تمام الاختلاف... فندى شخصية غريبة... تتركه لي أينما شئت ووقتما شئت، وللمدة التي أحددها... لا تغضب... لا تعترض... لا تتململ... كم هي غريبة! وكم استعصى علي فهمها...

في صباح اليوم التالي ذهب أحمد إلى المشفى ليقل ندى وابنتها ووالدتها إلى منزل والدها حتى تتعافى، وكما هو معهود، بعد أن انتهى من إجراءات استخراج شهادة ميلاد ابنته التي أطلقوا عليها اسم كارما...

أوصلهم إلى المنزل وتركهم بحجة أنه يبحث عن ممرضة لتكمل العلاج الذي أوصى به الطبيب لندى اللازم لاستشفائها، ولكنه ما لبث أن نزل من منزل والدها حتى نسي الأمر برمته وأتى إلي، جلس يتابع عمله على حاسوبه الشخصي الذكي لمدة تجاوزت السبع ساعات، وهو شبه منفصل عن العالم من حوله.

انتفضت على صوت هاتفه الذي انتزعه من تركيزه ليجد والدة ندى على الخط تسأله عن الممرضة المطلوبة، والتي وعد هو بإحضارها، كما أخبرته أن ندى تتمزق ألمًا وتطوق إلى جرعة المسكن التي وصفها لها الطبيب، حيث أصبحت غير قادرة على تحمل الألم أكثر من ذلك، ولكن أتاه صوته باردًا كالثلج وهو يقول: معلش أنا نسيت.. هو ضروري موضوع الممرضة والحقن ده؟ ماينفعش تاخد أي مسكن دلوقتي؟

وعلى الرغم من أنني كنت جالسة على مقعد يبتعد عن مقعد أحمد بقرابة المتر، إلا أن صوت سمر أتاني هادرًا وهي تقول بتوتر صادق: مسكن تاني إيه.. البنت بتتقطع قدامي.. ونسيت إزاي.. إنت مش قولت محدش يجيب ممرضة، أنا هتصرف...

تململ أحمد وحاول المماطلة متحججًا بعمله، مما أثار غضبي أنا الأخرى على غير العادة، ووجدت نفسي اندفعت لأقول، وهو ما زال على الهاتف مع سمر: سيب اللي في إيدك وقوم الحق مراتك.

حتى قاطعنا صوت حازم قائلًا بعصبية وبمنتهى الحسم: قوليله خلاص يا سمر، أنا جبت ممرضة واقفلي التليفون ده.

فأسرعت لتغلق الخط في وجه أحمد، الذي جلس أمامي بلا حراك، لا يعتلي وجهه أي تعبير، حيث بدا كتمثال من الشمع، فاندفعت قائلة: في إيه مالك.. إنت عايز البنت يجرالها حاجة ويجيبوها فيك ويقولوا إنك قصرت؟

اشاح بوجهه بعيدًا وتمتم ببعض كلمات غير مفهومة، ثم قام فجأة وارتدى ملابسه وانطلق مسرعًا...

عاد بعد ساعتين وما زال ذلك التعبير على وجهه.. التوتر والغضب، حاولت ألا أسأله في البداية عن سبب ذلك، لكن تمهلت حتى لا ينفر مني أنا أيضًا، وتركته حتى يبدل ملابسه ويتناول العشاء، وبعدها سألته: مالك، شكلك زعلان؟

مط شفتيه وقال مستاءً: أنا مش عارف لازمتي إيه؟.. هي مش في بيت أبوها.. إيه المطلوب مني بقى؟

تعجبت لقوله، وإن كان المنطق في حد ذاته قد لاقى استحساني، فقلت بهدوء: اعمل اللي عليك علشان ماحدش يغلطك.

أومأ برأسه في هدوء مماثل وذهب لاستكمال عمله...

بعد عدة أيام، استمر فيها الوضع على ما هو عليه، حيث كان أحمد يذهب لزيارة ندى لمدة ساعة أو ساعتين على الأكثر ثم يعود إلي، وفي أيام أخرى لم يكن يذهب لرؤيتهم، حتى بعد إصابة ابنته بمرض يشتهر بين حديثي الولادة وهو – الصفرا – إلا أنه اكتفى بأن ذهب بها إلى الطبيب وأعادها لأمها، وعاد ليكمل أيامه بصورة طبيعية جدًا...

وفي أحد الأيام طلبت منه أن أذهب لزيارتها، حيث كنت أريد أن أطمئن: هل فهموا شيئًا؟.. هل سأجد معاملة تماثل أفعال ابني؟ عموماً، لنرى...

ذهبت إليهم في اليوم السابع بعد الولادة، لأجد مظاهر احتفال بسيط كما هو متعارف عليه، ووجدت ترحيبًا من سمر وندى وحازم، حيث لم يقابلوا معاملة ابني بمعاملة سيئة معي، وهو ما تعجبت له، لكن يبدو أنهم على قدر من الاحترام والرقي لم أعهده في حياتي مع أحد من المحيطين بي من قبل...

بعد تبادل عبارات الترحيب والتبريكات والتهنئة المتعارف عليها في مثل هذه المناسبات، قالت سمر بود: عملنا حفلة صغيرة كده لكارما لغاية ما تشد حيلها هي وندى، ونعمل حفلة كبيرة بإذن الله ونعزم كل حبايبنا... حازم عايز يعملهم سبوع جميل.

تهللت أساريري لذلك، فمعنى قولها أن حازم هو من سيتكفل بمصاريف هذا الحفل، الذي لن يخلو مما لذ وطاب كما عودنا جميعًا.

فقلت بابتهاج: بإذن الله يا حبيبتي يعيش ويعمل حفلات.

ثم وجهت حديثي لندى وقلت وأنا أمازحها: شدي حيلك بقى، عايزين نفرح.

هزت رأسها وأجابت بابتسامة خفيفة: بإذن الله.

توجهت سمر لتقدم لي واجب الضيافة، ووجدتها فرصة لأعطي كارما هدية ميلادها، حيث أعطيتها سلسلة صغيرة من الذهب، لا أذكر متى ابتعتها فقد مر على ذلك دهرًا، شأنها شأن كل ما أملكه من مشغولات ذهبية، حار الجميع في إحصاء عددها ولم يدركوه...

أنهيت زيارتي واستأذنت للانصراف على وعد بلقاء آخر قريب في حفل السبوع...

بعد انصرافي، انتابني شعور غريب ورغبة عارمة في إفساد ذلك الحفل... لا أدري ما السبب، لعلني حقدت على ندى، والتي رأيت بأم عيني مدى تدليل والدها لها وحرصه على إقامة حفل ليبث السعادة في نفسها ويفرح معها بأبنائها، ولا أخفيكم سرًا، أنا لا أحب هذا الطفل ابنها... نعم.. لا أحبه، بل أشعر بضيق بالغ عند رؤيته، لا سيما عندما أرى هذا الاهتمام المبالغ فيه من والد ندى ووالدتها به، حتى إنني أتمنى أن يلقوه إلى والده ليكمل هو تربيته، فأنا أرى أنه يكلفهم كثيرًا من المال لرعايته، كما أن والده صاحب الملايين أولى برعايته، وليترك أموال حازم لي كي أهنأ بها، فما الفائدة من وراء بضعة عزائم وولائم يقدمونها لنا كل فترة؟ أنا أطمع فيما هو أكثر من ذلك... فبدلاً من تلك الهدايا العينية التي يقدمونها لي في المناسبات،

ما المانع أن تتحول إلى مقتنيات ذهبية.. قرطًا مثلا أو سوارًا أو ما شابه... وتلك الرحلات التي لا يكفوا عن القيام بها صيفًا وشتاءً، لماذا لا يصطحبوني معهم في إحداها؟ أليس من ضمن عائلتهم... تبا لذلك الصغير الذي ترك آمال أبيه وجاء ليزاحمني في أمنياتي...

بعد أيام علمت من ابنة إحدى جارات زوجة أبي المأفونة أن أختي الغير شقيقة، والتي ولدت معي في نفس يوم ميلادي – لو تذكرونها – تحتضر، وقد تلفظت أنفاسها الأخيرة من بين طرفة عين وانتباهتها... تنفست الصعداء، فعلى الرغم من أن ليس لي باخوتي غير الأشقاء، بل وجزء كبير من أخوتي الأشقاء أيضًا، أي اتصال منذ أمد بعيد وعدد من السنوات تعبت من إحصائه، إلا أنني وجدتها فرصة لا تعوض، فبموت تلك الأخت المزعومة، تكون ردت إلي جميلًا كنت قد أسديته لها يوم ميلادها، عندما تركتها تسحب البساط من تحت قدمي، وتسحب انتباه أبي مني وتقسم فرحته بيني وبينها يوم ميلادي...

لم تكد الساعات تمضي حتى وجدت نعيها منتشرًا على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، وأكد لي الخبر ابنة جارتهم تلك التي سبق وأن أطلعتني على خبر مرضها... لم ألبس إلا وقد وضعت على وجهي قناع الحزن والأسى، حتى خُيل لكل من رآني أنني حزينة فعلًا لما ألم بأختي وحبيبتي من فاجعة، ويا لها من فاجعة...

أسرعت إلى أحمد أنبئه بما حدث، وراجوته بأن يخبر ندى وأهلها، ويعمل على تأخير حفل سبوع ابنته، حيث إن الظرف لا يسمح بإقامة حفل...

وقد كان ما أريد، فما هي إلا بضع دقائق حتى انهالت عليّ الاتصالات من ندى وأهلها لمواساتي وتقديم واجب العزاء في أختي، مع إصرارهم على تأجيل الحفل حتى يسمح الظرف، لكني استغربت من ردة فعلي عندما وجدت نفسي أمانعهم بشدة ولم أوافقهم الرأي، بل وأصريت على موقفي بعدم تأجيل الحفل... لعلني أردت أن أدق مسمارًا يودي بعلاقة أحمد وندى إلى حافة الهاوية، فهو لن يسامح ولن يغفر لهم إقامتهم لحفل وعدم مراعاتهم لمشاعري في ظرف كهذا...

وظل الوضع على ذلك في سيجال وكر وفر بيني وبينهم لثلاثة أيام متتالية، أصروا فيها هم على تأجيل الحفل وأصريت أنا أيضًا على عدم التأجيل...

كنت إذا هاتفني أحمد أبلغه برفضي لإقامة الحفل، ومن الناحية الأخرى أصر على عدم إلغائه أمام ندى وأهلها، حتى تخبط الجميع ونشبت مشكلة كبيرة بين أحمد وبين حازم بعد أن فهم حازم مرأبي من تلك الأفعال...

أعتقد أنني كُشفت الآن وظهر وجهي السيء للجميع...

حتى أحمد... اعترف لندى قائلاً: المشكلة اللي حصلت بيني وبين والدك دي سببها أمي، كانت بتقول لكل واحد فينا كلمة وترجع تغيرها مع التاني، أنا مش فاهم هي عايزة إيه بالظبط.

في تلك الأثناء أصبحت ندى متوجسة مني، وابتعدت عني مسافة، معللة ذلك بانشغالها مع ابنتها ولأنها لم تتماثل للشفاء بعد، إلا أن المشكلات التي حدثت جعلت والدتها تقنعها بالعودة إلى منزلها، حتى ولو لم تكن تشافت بالكامل، حيث لم يمر على ولادتها سوى أسبوعان فقط...

لا يغرنكم حديث سمر مع ندى، أو نصيحتها التي تبدو في ظاهرها نصيحة أم تحافظ على حياة ابنتها الزوجية، على العكس... هي فقط أرادت ألا يعكر صفو إيمانها شيء أكثر من ذلك، فغلفت سم الحقيقة بعسل النصيحة وألقته على مسامع ابنتها، التي فهمت على الفور ما ترمي إليه والدتها، فما وجدت أمامها سوى الانصياع... لا سيما بعد أن وعدتها سمر بإقامة حفل السبوع يضم عائلتهم فقط، وهو بالفعل ما تم، وما عرفه أحمد عن طريق تفتيش هاتف ندى المحمول، حيث وجد صورًا للحفل، وقد كان حفلاً فاخرًا بحق ضم المقربين من أهل وأصدقاء وجيران عائلة حازم المقربين، حيث عمد على إقامة هذا الحفل ترفيهًا عن ابنته وكهدية منه لها ولابنتها...

مر الوقت، كثرت معه المشكلات بين أحمد وندى، والتي كانت جميعها منصبة حول الاهتمام المفرط الذي يبغيه أحمد منها، كما لو كان طفلًا رضيعا لا يريد الانفصال عن أمه... كنت أتعمّد زيارة

ندى أنا أو أمير بصورة مفاجئة لامسك عليها أي فرصة أزيد بها بنزينا على النار... ولكن الحق أقول لكم إن ندى لم تترك لي أية ثغرة، وأضاعت عليّ جميع الفرص... فلا يوجد يوم قمت بزيارتها فيه إلا ووجدت منزلها مرتبًا لا ينقصه شيء، ولم تهمل في مظهرها يومًا... ولكن كنت أتعمّد أمام أحمد أن أقول في خبث و دناءة يدرسوا في أسوأ المحافل: مفيش واحدة بتعرف تحافظ على مظهرها وعلى شكلها وهي معاها طفل...

لم يقتصر كلامي عند هذا الحد، بل كنت أتعمّد أن أقول لندى بنفس الخسة: أنتي زي القمر من غير حاجة، مش محتاجة ماكياج وانتي نازلة، انتي كده كده جميلة... بل وذهبت إلى ما هو أكثر من ذلك بأن تعمدت أن أجعل ندى لا ترتدي ملابس أنيقة أثناء زيارتي... فكم كنت أكتوي بنار الحقد والغل كلما رأيت ملابسها، والتي كان يجلبها والدها لها من أرقى وأغلى المحال والعلامات التجارية، وكنت ألعب دائمًا على – عقدة الشعور بالذنب عليها – وأنا أدرك كم هي ضعيفة تتأثر بأقل كلمة تقال لها، فكنت دائمًا ما أقارنها بالمأفونة هالة، وبكم أنها كانت تعشق البذخ في مظهرها حتى تقلل من شأني وشأن كل من آلاء وأميرة، وتتعالى علينا جميعًا، حتى أقلعت ندى على إظهار ملابسها الغالية أمامنا، حتى لا تجرح مشاعرنا... وكم كنت أمتدحها كلما تنازلت عن أبسط حقوقها، وكم كان يشعرني هذا بنشوة ولذة الانتصار...

مرت أشهر وانطفأت ندى... وذبلت الزهرة التي تفتحت على يد أحمد... نعم، فقد كان هو من جعلها تشرق... وهو أيضًا من جعلها تذبل وتنطفئ...

أما أنا فقد عشت أسعد أيام حياتي وأنا أرى أحمد يعاملني أنا كزوجته... حيث خصني أنا بكل شيء... أسراره، أحاديثه، أفراحه، مخاوفه، حتى نزهاته وسعادته، كانت كلها لي ومعي... بل وانتهى بهم الحال إلى أن انفصل كل منهم عن الآخر في غرفة بمفرده... ندى وكارما في غرفة، وأحمد في الأخرى، وكان هذا انصياعًا لأوامري، فقد أمرت بحدوث ذلك، معللة بأنه يجب أن يرتاح أحمد ويأخذ قسطًا يكفيه من الراحة والنوم يوميًا، حتى يتسنى له الانتباه إلى عمله... وسرعان ما نفذ أحمد ما أمرت به، فهو يعلم تمام العلم أنه لن يتحمل عقابي، كما أنه على يقين بأني سوف أعرف إن كان امتثل لرغبتي أم لا...

أما ندى وابنتها، فكانا مسؤولية حازم... كساء، ترفيه، كل ما تريد، حتى يعوضها ما يحدث معها من أحمد...

وكنت كلما ألمح بوادر استيقاظ ضمير أحمد، أبادر بإخماده مرة أخرى، ففي مرة وجدته يقول بنبرة حزينة: أنا عايز أرجع أفرح ندى تاني، ندى اتغيرت وما بقتش شايفاني في حياتها خالص، عايز أرجع أقوي علاقتنا، بفكر أجيبلها هدية، أو آخدها ونسافر، عايز أعوضها الأيام اللي بعدنا فيها عن بعض.

فأجبت في حدة: أبوها مش مخليها ناقصها حاجة، فسح وخروجات وسفر وأكل وهدوم، هي مش عايزة منك حاجة أصلاً.

أجاب باستنكار: هي مسئولة مني، أنا جوزها والمفروض أعمل كل ده.

قلت وأنا أحاول أن أهدأ، وجاء صوتي يحمل نبرة مدح مدروس: ندى بنت ناس وأبوها مالي عينها، ومش عايزة تضغط عليك، وهي عارفة إنك بتبني شغلك من الأول، محترمة أوي، أنا فعلاً بحبها.

أومأ برأسه متفهمًا، وإن ظل التردد والاستنكار حبيس صدره وأفكاره... فهو ابني، وأنا أحفظه عن ظهر قلب...

ظلت المشكلات قائمة بين أحمد وندى، وكنت أكتفي بمهاتفتها كل يوم كي أسمع صوتها وأتلذذ بمعرفة اتساع الفجوة بينهم يومًا بعد يوم، ولم أكتف بذلك، بل اتخذت قرارًا، بل دعونا نسميه أمرًا.. فرمانًا سلطانيًا، بأن أجعلها تأتي لزيارتي بمفردها يومًا ثابتًا من كل أسبوع، حتى أتمكن من محاصرتها وبث أفكاري في عقلها، وإحكام السيطرة على حياتها... فأنا لست بالسذاجة التي تجعلني أتركها لأحمد ليحسن علاقته بها، أو ليهديها كما أراد... لا... إن ما وصلت له من إنجاز لن أسمح لأي مخلوق، أيا من كان، أن يدمره... فأنا الوحيدة في قلب ابني ولن يصل لمكانتي أحد... بل لن يقترب إلى مكانتي أحد...

أحكمت سيطرتي هكذا لسنوات متتالية... نعم... ظل الحال هكذا لمدة خمسة أعوام... خمسة أعوام متتالية...

في زيارات ندى، كنت أتعامل بمبدأ الشد والجذب، بمعنى أنني كنت أمطرها سخافات، وبين طياتها كنت أدس بعض الكلمات الطيبة والإطراءات التي تتعطش هي لسماعها، حتى جاء يوم أردت أن أخبرها ومنتهى الصراحة والغرور بأنني أنا الوحيدة في حياة أحمد، ولي كل الحق في تسييرها وفق هواي، فقلت لها وأنا عاقدة يدي أمام صدري وأهز قدمي بثقة مفرطة: تعرفي إن هالة كانت بتغير مني؟.. كانت دايمًا تقول لأحمد انت بتحب أمك أكتر مني.

ظهر التعجب على وجهها وقالت: إزاي، دي غريبة جدًا، هو في حاجة اسمها كده أصلاً.

تحفزت وقلت: قصدك إيه؟

أجابت بهدوء: يعني حب الأم حاجة، وحب الزوجة حاجة تانية.. حب الأم فطري، الإنسان بيتولد بيه، يعني هيتولد بيحب أمه بفطرته، بطبيعته، أما حب الزوجة ده مكتسب، يعني هو اللي اختارها، واختار إنها تكمل معاه حياته، بنفسه.. وبكامل إرادته.

شعرت بغصة في حلقي وارتفعت دقات قلبي لردها، معنى كلامها أن أحمد لو كان وجد أمه شيطانة لكان أحبها، فهو حب بالإجبار وليس بالاختيار... إنه القدر مرة أخرى.. بل للمرة الألف يعاندني.. نعم.. أحمد لم يختارني...

هززت رأسي بشدة كي أطرد عنها تلك الفكرة، ومن هنا علمت أن ندى لم تعد تلك الساذجة التي لعبت بها الكرة وسيرتها كما أشاء

كريشة ضعيفة، تعصف بها أبسط نسمة صيفية، وتلقي بها حيث أرادت...

فأسرعت أقول لها بخسة وتهديد بدا واضحان: انتي تعرفي إن أنا اللي طلقتهم؟

أجابت في تعجب: إزاي؟

أسرعت بنفس نبرة التهديد: كنت كل ما يجيلي البيت أفكرّه بمساوئها، وقد إيه هي مهملة فيه وفي أولادهم لدرجة محدش يتخيلها، وفي يوم من الأيام وأنا بعمل كده انفعل عليا جامد، وقال لي: يا ماما إحنا أصلا على صفيح ساخن.. أرجوكي ما تبقيش انتي سبب الطلاق.. وسابني ومشي.

هزت رأسها بهدوء متفهمة، فتابعت: بس أنا ما سكتش.

ثم خبطت كفي على الأخرى بغل واضح: واشتغلت من تحت لتحت لغاية ما طلقتهم.

أجابت بنفس الهدوء الذي أثار غضبي وبنظرة لم أفهمها: عندك حق والله يا ماما، مهو ماحدش يسيب ابنه لحد يضيعه ويدمره نفسيًا.

أمعنت النظر إليها وأنا أحاول ثبر أغوارها وقلت بتهديد واضح وبلهجة صارمة ذات مغزى: خدي بالك من بيتك وجوزك، أصل الراجل مبيحبش النكد، مهما كنتي جميلة وحلوة ممكن يطلقك ويشتري راحة باله.

وهنا تفاجأت بردة فعل ندى لأول مرة منذ أن عرفتها، فقد أطلقت ضحكة ساخرة عالية وقالت في صرامة: متخافيش يا ماما، أنا مش هالة.

ثم هبت واقفة وأمسكت بابنتها وانصرفت مسرعة...

لم أتحرك من مكاني، بل ظللت جالسة على وضعي، لم أفهم رد فعلها، ولم أكن أعلم ما تنتوي عمله...

بعد خروجها بأقل من ساعة عاد أمير من الخارج حيث كان يقضي مصلحة له، فقصصت عليه ما حدث، ولم أتوقع ردة فعله، فقد هب واقفاً معنّفاً إياي، ولأول مرة يهب المارد من رقاده وصاح بصوت هادر لم أعهده فيه قائلاً: حرام عليكي.. انتي إيه.. مابتشبعيش خراب.. خربتي بيت ابنك مرة وماهمكيش ٣ أطفال مالهمش أي ذنب في الحياة غير أن واحدة زيك تبقى جدتهم، وقلتي أصل أمهم ست مش كويسة ومهملة في ابني وفي ولاده، على أساس إن ولاده مهمينك أوي، والآن بعد ما ربنا كرمه بواحدة محترمة، وبنت ناس، وعينيها مليانة، وهي وأهلها مش محملين ابنك أي مسؤولية، بردو عايزة تخربي عليه، انتي إيه، شيطان!

كان سيستطرد ليفرغ كبت سنين عجاف جمته فيها بحجة أنني من أتولى الصرف عليه وعلى أبنائه، لكن قاطعه رنينا عصبياً متصلاً بجرس المنزل، فاندفع ليفتح الباب، وإذا هو بالجحيم ذاته مستعراً يدلف إلى منزلي، والذي لم يكن سوى حازم.. والد ندى، حيث بدا كإعصار تسونامي لا ينتوي إلا على شيء واحد.. اقتلاع الأخضر

واليابس، واقتلاعي من جذوري عقاباً على ما فعلته بابنته طيلة الأعوام السابقة...

اندفع واقفًا أمامي كالجحيم المستعر صارخاً: أنا عايز أفهم بقى انتي أخرك إيه يا شيطانة؟

تجمدت في مقعدي عاجزة عن النطق، وشعرت بأني أغور فيه، ولا أجد من احتمي به.. فحتى أمير الذي ظننت أنه تحت إمرتي وخادماً مخلصاً لسيدته تمرد وانفجر.. ماذا أفعل الآن.. ومن يغيثني.. هل من مجيب؟.. احتبست الكلمات بحلقي ولم تخرج.. لم أجد ما أقوله.. فماذا أقول؟.. هل أعترف بأنني لست سوية؟.. هل أفصح لهم عن نقطة ضعفي؟.. هل أُلقي لهم بالحقيقة العارية؟، أم أنهم فهموا من تلقاء أنفسهم بأني مريضة بالسيطرة؟.. لا أريد أن يظهر أحد سواي.. أريد أن أصبح كعبة الجميع، والمتَحكم الأول والأخير بمصائرهم...

ارتعدت فرائسي بعد أن وجدت نفسي أواجه اثنان من ضحاياي دفعة واحدة..

ولأول مرة يظهر الجرذ الحقير الذي بداخلي في العلن ويعلنها صريحة... أنا أجبن مما تتخيلون...

وفي تلك الأثناء كان أمير، ورغم انفعاله الجم، إلا أنه أخذ يهدئ من روع حازم الذي كاد أن يفتك بي جراء ما فعلته بابنته...

حاول حازم أن يهدأ مراعاة لأمير، الذي أحضر له كوباً من الماء وحاول إجلاسه، فهدأ بنسبة تكاد تكون منعدمة، ثم جلس في مواجهتي وصاح في حدة مشيراً إليّ بسبابته بازدراء: انتي بتهددي بنتي أنا بالطلاق.. أوعي تكوني فاكرة إني مش فاهمك من أول يوم عرفتك فيه.. أنا اتعاملت مع أصناف من البشر ما تتخيليهاش.. وما كنتش موافق على الجوازة دي من الأول، لولا ما ابنك قطع سفرية شغلة ونزلي مخصوص عشان يطلب إيد ندى، ووعدني إنه حيعوّضها عن اللي شافته، بس انتي ما ريحكيش ده.. انتي خراب ماشي على الأرض.. عموماً خليهولك.. اهو عندك.. أنا بنتي عندي أغلى من الدنيا وما فيها.

ربت أمير على كتفه محاولاً تهدئته، ثم قال بانفعال لم ينجح في إخفائه: عندك حق في كل كلمة قولتها.. بس الغلط مش غلطها لوحدها.. أنا اللي غلطت من الأول لما ملكتها من زمام كل الأمور في حياتنا.

رمقته بنظرة نارية، وكدت أصرخ موبخة له لأذكره بأني ولية نعمته، لكن لم أستطع وتداركت ذلك بعد أن انفجر حازم قائلاً: طماعة.. وعينك فارغة.. وباصة في رزق كل اللي حواليكي.. ومستكترة عليهم أي حاجة، وعايزة تاخدي أي حاجة، وكل حاجة، حتى لو مالهاش لازمة عندك، بس المهم إنك تاخديها.. حتى ابنك.. استخسرتيه واستكترتيه على مراته الأولى والثانية.. متخيلة إنك هتعملي بيه إيه

أكتر من إنه ابنك ويبرك، عايزة تتجوزيه مثلاً؟.. حاشا لله.. عايزة تغيري سنة ربنا في خلقه؟.. عموماً اهو عندك.. خليهولك.

ثم اندفع واقفًا وهم بمغادرة المنزل، ولكن استوقفه أمير قائلاً: أنا آسف ليك يا حازم، وآسف جداً لندى، بس أرجوك بلاش خراب، صدقني أنا اللي حدير الأمور كلها من هنا ورايح.

ابتسم حازم ابتسامة سخرية عصبية وقال: شكراً يا أمير، بس الأمر كله في إيد ندى، هي اللي مصممة على الانفصال، ومش قادرة تعيش مع ابنك، لأنه بمنتهى البساطة نزل من نظرها، وأنا ما أقدرش أجبر بنتي على عيشة مش حباها، كفاية اللي شافته.

غمغم أمير بلهجة شبه متوسلة: أرجوك كفاية خراب واستأذنك أنا عايز أقعد مع ندى.

أجابه حازم وقد بدأ يهدأ بعد أن صارحني بحقيقتي: اتفضل طبعاً في أي وقت، تشرف.

ثم انطلق خارج المنزل، وصفع الباب خلفه صفعة بدت لي أشبه بطلقة مدفع ثقيلة، أطلقها القدر عليّ جراء أفعالي.

ما كاد حازم ينصرف من المنزل حتى بدأت أستعيد رباطة جأشي، وحاولت الهجوم على أمير الذي تعمد إحراجي أمام حازم... ولكن... صدر منه ما لم أتوقعه في حياتي قط... ولا حتى حلمت به في أسوأ كوابيسي... فبمجرد أن بدأ صوتي يخرج صائحة به، عاجلني بصفعة هزت كياني...

صفعة حملت في طياتها كبت وغضب هائلين... صفعة أودعها كل كسرة لرجولته بدرت مني وقرر أن يُجبرها... صفعة نفثت عن الكثير والكثير من الذل وانعدام القيمة...

نعم...

صفعني على وجهي... ودون أدنى تردد...

نظرت في عينيه محدقة في ذهول، أحقاً ما حدث؟... إلا أنني اصطدمت بنظرة شرسة ملتهبة كحمم بركانية انفجرت لتوها من بركان أخذ في الغليان لمئات السنين، ما لبس إلا أن وجد فرصته أخيراً في الانفجار...

ثم هتف بصوت هادر: من هنا ورايح تدخلات في حياة أي حد من أولادنا مفيش.. ولو عرفت أو سمعت إنك عملتي كده، هطلقك.

قالها واندفع إلى غرفته وأغلق بابها خلفه بعنف... وتركني حبيسة صدمتي، عاجزة عن النطق...

إذن فقد حدث ما كنت أخشاه... تحدثت ندى وأفشت أسرار ما أفعل بها... لم تنفذ تعليماتي حين أمرتها بعدم إدخال الرجال في حواراتنا... نعم.. كنت أفعل بها ما أفعل، وفي نهاية حديثنا أشدد عليها أن أحداً من رجال العائلة لا يعلم بأمور ما يحدث بين النساء، مبررة ذلك بأن الرجال لا يحبون هذا...

مهلاً... هل معنى ما قاله أمير أنني فقدت السيطرة على مقاليد جميع الأمور؟.. أي أن إمبراطوريتي التي جاهدت في بنائها على مدار عقود

قد انتهت؟!.. هل سأستسلم؟.. ولكن.. ماذا عساي أن أفعل، لقد انقلب السحر على الساحر وهددني هو بالطلاق... لقد أذاقني من نفس الكأس التي جعلت جميع من حولي من النساء يتجرعونه... وفجأة تذكرت.. أبنائي.. صنيعتي وعمل يداي.. وخاصة أحمد، فإنهم بالطبع لن يتركوا مجرد تصور أن يحدث لي مكروه، فأنا أمانهم، هواؤهم الذي يتنفسون.. بل أنا رئتهم التي بها يتنفسون...

أسرعت إلى الهاتف وكان أحمد هو أول من استجرت به، ولكن... لم يجب... أمسك الهاتف مرة أخرى وعاودت الاتصال... وفي هذه المرة أيضاً... لم يجب... نظرت للهاتف في ذهول، وعاودت الاتصال مراراً وتكراراً، وفي كل مرة كنت أحصل على نفس النتيجة... وكأنه يريد أن يوصل لي أنه فهم سبب فشله.. أنا... أغلقت الهاتف وأسرعت بمحادثة آلاء، وفعلاً أجابتني، ولكن وجدتها غير مهتمة بسماع ما حدث، بل وأسرعت بإغلاق الهاتف لانشغالها بأولادها وزوجها... كادت عيني تقفز من محاجرها وأنا أحدق في الهاتف بمنتهى الزهول غير مصدقة... آلاء.. ابنتي.. صنيعتي وخليفتي.. لا تعبأ لأمري...

أمسكت بالهاتف للمرة الثالثة والأخيرة، وأسرعت بمحادثة أنس، وما أن رد حتى عاجلته وقصصت عليه كل ما حدث، ولكن اصطدمت بجبل من الجليد حين سمعته يقول ببرود: معلش يا ماما، بابا زعلان شوية وهيبقى كويس.

انهارت وأنا أقول له: بقولك ضريني.

أجاب بنفس البرود: معلش، بكرة هيصالحك.. تصبح على خير.

وأغلق الهاتف حتى قبل أن أرد عليه...

لم تمر عليّ ليلة في عمري كلها أسوأ من تلك الليلة... لم يغمض لي جفن.. ولم أذق طعم النوم... لقد أعلن الجميع العصيان عليّ... ثاروا جميعًا دفعة واحدة، ولم يتبقَ لي سوى الحسرة...

ظللتُ طوال تلك الليلة جالسة، عاجزة عن الحركة، كتمثال يمكث في بهو متحفه غير قادر على فعل شيء سوى ترك نفسه لأعين الزوار تتأمله... لن أبالغ إذا قلت إنّ ذلك التمثال حاله أفضل مني؛ ففي حالته تكون نظرات الناس له إعجابًا وانبهارًا، أمّا أنا فنظراتهم تلك ستتحول إلى الشماتة والفرح بالنصر... سيشمت بي الجميع، وسيمطرونني بنظراتهم وعباراتهم المتشفية التي أستطيع سماعها من الآن...

فها هي هالة... أسمعها بوضوح وهي تقول: و على الباغي تدور الدوائر.

وكذلك أميرة ووالدتها، أراهما يتغامزان ويضحكان في سخرية قائلين: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

لترد أمها عليها قائلة: كانت بتهددني بطلاقك من أنس، وسحبت مني فلوس كتير عشان تكفيني شرها... شوية هدايا، وشوية عزايم، وشوية خروجات... شفتي ربنا؟! ما بيضيعش حق.

وهنا أتاني صوت محمد زوج آلاء من بعيد، وكأنه يوصل لي رسالة عبر الأثير: مؤذية... حتى بيت بنتك كنتِ هتخربيه، حسبي الله ونعم الوكيل.

ولكن الوحيدة التي لم أسمع صوتها في مخيلتي كانت ندى... فقد اكتفت بأن تقف أمامي وهي تنظر لي نظرة ظفر وثقة، فاغرة فاها عن ابتسامة نصر واسعة...

أتى الصباح... وكم كنت أتمنى مع إشراقة شمسه أن تعود شمس مجدي وسلطتي معها... ولكن شيئًا من هذا لم يحدث...

فقد استيقظ أمير وتوجه إلى حيث أجلس منذ أمسي، ونظر إلي نظرة تحدٍّ، ثم قال بلهجة آمرة لم أعهدها منه: قومي حضري الفطار.

تعجبت من نفسي حين وجدني أنصاع لأمره دون تردد، وقمت أتّكئ على كل قطع الأثاث من حولي بعد أن عجزت قدماي عن حملي من هول صدمتي...

واتجهت إلى المطبخ، وأعددت له الطعام، ولكن بعد أن شرعت في تقديمه له، إذا بي أجده مرتديًا ملابسه، ثم أسرع نحو باب المنزل وخرج دون أن ينظر إلي، وكأنني كمٌّ مهمل لا يراه، ثم صفع الباب خلفه بعصبية... فهمت ما يقصد... إنه يريد إذلالي... تمامًا كما كنت أفعل معه...

كم كنتُ أتعمد ذلك أمام كل من هبّ ودبّ... كبيرًا كان أو حتى صغيرًا... كل صديق جديد نتعرف عليه، كل ملتحق جديد بعائلتنا...

كنت أتعمد أن أذله أمامه... حتى زوجات أبنائه وزوج آلاء... حتى أحفاده... كنت أتعمد إذلاله أمامه... كنت أريد أن أعلم الجميع أنّني هنا المتحكم الأوحد والمسير لحيواتهم جميعًا...

حاولت التماسك ولكنني لم أستطع، فتوجهت إلى أقرب مقعد وتركت جسدي يسقط عليه، ولأول مرة في حياتي بكيت... بكيت بحرقة لم أعهدها في نفسي، حتى في أحلك أيامي صعوبة... لم أبكِ هكذا حتى أيام مرضي... بكيت حتى كاد صدري ينفجر من فرط الألم والحسرة... لا على شيء سواي... نعم، فأنا أبكي عليّ وعلى ما أصابني... لم أعد ذلك المحرك الأول... لم تعد تؤول إليّ الأمور... لم أعد أنا من يأمر وينهي، يمنح ويمنع، يعز ويذل...

انتهيت...

وانتهت أسطورتي...

جلست أستعيد ذكريات آخر فترة لي في حكم إمبراطوريتي...

تذكرت كيف كنتُ من اللحظة الأولى لدخول ندى لحياتنا أتعامل معها على أنها عقاب للبعض ومطمع للآخر... كيف كنت امتدحها وأتغزل فيها عند الحديث مع أميرة ووالدتها لأستزيد وأنهل من عطائهما، حتى أصبحتا تكرهان مجرد ذكر اسمها.

وتذكرت كيف كانت تتفنن والدة أميرة في إهانتها ومضايقتها للثأر لنفسها ولابنتها أيضًا... نعم... لابنتها، فقد كنت أتعمد أن ألفت انتباه أنس نحو ندى... وكم سعيت لاستمالة قلبه نحو زوجة أخيه،

بأن كنت دائمًا ما أعقد مقارنات بينه وبين زوجته التي لم تكن على نفس قدر جمال ندى، ولم تكن تكافئها حسبًا...

كنت دائمًا ما أقول له بمنتهى الخسة والوضاعة: انظر... كم هي جميلة زوجة أخيك... كم تبدو كالأميرات في طلتها... تأمل مشيتها وكيف تتعامل برقة وأناقة مع الجميع، حتى الأطفال... انظر كم يحبونها ويعاملونها وكأنها أميرة قدمت لتوها من زمن الأساطير...

كنت أصارحه بأني لم أكن أتمنى له زوجة كأميرة، فهي على قدر متواضع جدًا من الجمال... وكنت أتعمد إهمال سرد ما بها من مميزات حتى كرهها تمام الكره، بل وأصبح نظره متعلقًا بندى في كل جلسة، ولم يكن لديه إلا مراقبتها في أي تجمع عائلي... حتى لاحظ الجميع ذلك، وأولهم ندى نفسها... فأخذت تعتذر عن أغلب تجمعاتنا العائلية، وكانت تعلّله بانشغالها مع أبنائها...

ولم تكن ندى فقط هي من لاحظت ذلك؛ حيث كانت أول الملاحظين هي أميرة زوجته، وأمها... والتي تركت لنفسها السيئة العنان هي الأخرى لتدمر ندى تدميرًا...

ولم أكتفِ بذلك، بل كنت على الناحية الأخرى أوسوس لأحمد بأن ينظر لما تفعله أم زوجة أنس... فهي شبه متكفلة بكافة متطلبات الحياة لابنتها وحفيداتها، حتى أصبح أنس شبه عالة عليهما، بل وكرّس كل جهده لادخار أمواله للزواج بأخرى، دون النظر أو وضع أي اعتبار لمن يعولهم...

كذلك لم تسلم آلاء مني ومن أذاي... فكم كنت أدعوها لمقاطعة زوجها وتشجيعها على ترك فراش الزوجية والابتعاد عنه لمعاقبته، حتى أصبح كل منهم يعيش في غرفة منفصلة عن الآخر...

ولكن هبَّ الجميع دفعة واحدة ونبذوني...

قرروا جميعًا معاقبتي في وقت واحد...

بعد ذلك اليوم، والذي تعاون فيه الجميع وقاموا بهدم الصنم الذي صنعته لهم ليقدسوه، وحطموه بضربة رجل واحد... وأي رجل... رجل يافع، بالغ الشدة والعنفوان، شديد البأس... فهشم الصنم بضربة واحدة، بل سحقه سحقًا، فحوّله إلى كومة من التراب...

مرت الأيام كئيبة... ثقيلة... بطيئة... خالية من الأحداث... لا يهاتفني أحد من أبنائي إلا كل عدة أيام، ولا تستغرق مدة المكالمة سوى دقيقة أو دقيقتين، يسألون عن أحوالي الصحية التي أخذت في التدهور، ولكن أحدًا لم يعبأ أو يهتم... حتى بعد أن داهمني ذلك المرض اللعين مرة أخرى...

وعلى الرغم من زيارتهم لي جميعًا، إلا أنني لم أعد أرى تلك اللهفة في عيونهم...

أما عن ندى، وبعد أن زارها أمير وترجاها ملحًّا أن تقلع عن فكرة الانفصال، فكان لها شرط واحد حتى تعيد التفكير في الأمر، ألا وهو عدم رؤيتي أو سماع صوتي ولو بالصدفة لمرة أخرى...

لم يكن لأمير إلا أن وافق على مطلبها، مع وعد منه بإعادة تأديب أحمد... ولكن مما أثار دهشته أن أمر أحمد لم يعد يعنيها من الأساس... فهي فقط توافق على عدم الانفصال لسببين:

أولهما أن والدتها أصرت على أنه إذا حدث انفصال فإنه يتوجب على أحمد أن يأخذ ابنته من ندى، فهي لن تربي أبناء أحد مرة أخرى.

وثانيهما أن ندى لم تعد تراه كما كان، ولم تعد تتخذه محورًا لحياتها كما سبق...

أي إنه أصبح زواجًا مع إيقاف التنفيذ لحين إشعار آخر... تمامًا كما تمنيت...

كم كنت سأفرح لهذه النتيجة سابقًا، ولكن لم يعد الأمر كما كان...

بل على العكس...

لم أرَ أحمد إلا وقد تبدل حاله... فبعد أن كانت ندى هي من يلاحقه وتحاول جاهدَة لإرضائه حتى تستعيد حبه لها وتعود حياتهما كما كانت في بداية زواجهما... انقلبت الآية، وأصبح أحمد الآن هو من يدور في أفلاكها، لاهثًا خلف شيء واحد، وهدف واحد لا يرى غيره في حياته، ألا وهو إرضاء ندى وعودتها كما كانت...

أما هي، فما كان منها إلا أنها نهضت كالعنقاء من رمادها الناتج عن نفسها المحترقة... وتحولت إلى امرأة صلبة قوية، ناعمة مخملية في الوقت ذاته... تعلّمت من تجربتها، وهدمت كل أصنام الرعب الموجودة في حياتها المتمثلة في أنا شخصيًا وفي أمها... تصالحت

مع نفسها، ونسيت آلام الماضي... رفعت استحقاقها، ولم ترضَ بالقليل...

تعامَلَت كملكة، وتعلّمت أن الملكة تدير حياتها ولا تنتظر من أحد أن يتحكم بها وبمصيرها أيًا كان...

لم تكن تهتم كثيرًا لأمر أحمد، ولا لأمر علاقتها معه، بل صبّت جل اهتمامها على نفسها وعلى أبنائها... غلّفت نفسها بالغموض، ولم تعد تلك التي كانت تفشي بما يعتمل بداخلها لأي أحد تشعر معه بالأمان...

والغريب أن أحمد هو من أصبح يبحث عنها... أصبح يلهث وراءها وكأنها أمه التي إن ترك يدها ضاع وعصفت به الحياة...

وبمرور الوقت تحسنت علاقتهما كثيرًا، ولكن ظلّت ندى على حالها، ولم تفقد اهتمامها بنفسها...

علمتُ من أحد أبناء أحمد، والذين أصبحوا شديدي القرب والتعلق بها، أنها شرعت في دراسة الصحافة والإعلام، وبعدها حصلت على فرصة كبيرة للعمل في إحدى القنوات الفضائية... وصُعقت عندما طالعني وجهها البهي في يوم من الأيام على الشاشة الصغيرة...

ولم أتحمل وقع الصدمة...

كم بدت جميلة... منيرة الوجه مشرقة... سلبت العقول بلباقتها وحسن حديثها... صفق لها حتى الحاقدون عليها، وتمنوا لو لم يكونوا كذلك حتى ينالوا شرف معرفتها...

لقد صرعتني بنجاحها...

وهذا هو شرُّ انتقام...

الآن فقط علمت لماذا أتاني طيفها مبتسمًا بنصر وثقة...

وكان ختام ما نطقت به في أولى حلقات برنامجها الجديد والذي لاقى نجاحًا ساحقًا منذ أن ولد ورأى النور، أنها قالت بابتسامة واثقة:

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وهنا صفقت لها العائلة بأكملها، والتي كانت قد احتشدت لمشاهدة ندى على الشاشة...

أما عني فلم أحتمل وقع كلماتها والتي وصلني مغزاها على الفور، فارتميت أرضًا لا أعلم ما أصابني، فهرع إليّ الجميع وحملوني وأرقدوني فوق فراشي، ثم أحضر أمير طبيبًا أمر بنقلي على الفور لأقرب مشفى...

وهناك، وبعد إجراء الفحوصات الطبية اللازمة، نطق الطبيب لأمير وأحمد وأنس باقتضاب: جلطة في مكان حساس جدًا في المخ، حتكون نتيجتها إنها حتفقد القدرة على النطق أو الحركة، لكن مع الانتظام في الأدوية وجلسات العلاج الطبيعي حيحصل تحسن وممكن تبقى كويسة.

ثم صمت قليلًا وأردف: مش بصورة كاملة، بس بنسبة لا بأس بها.

أومأ الجميع برؤوسهم متفهمين في أسى، وبعد أن مكثت في المشفى لفترة ليست بالقليلة، أخضع لمراقبة وعناية دقيقتين، أخذت حالتي في التحسن شيئًا فشيئًا، وبعد أن استقرت، قرر الطبيب عودتي إلى منزلي مرة أخرى...

وبالفعل عدت إلى منزلي ولازمت فراشي، ودارت الحياة من حولي، وانشغل أبنائي كلٌّ في حياته وأعماله، وأصبحت أنا مجرد متابع لما يدور حولي من أحداث... أتابع ما يجري في صمت، عاجزة عن التدخل ولا أستطيع السيطرة كما كنت... فقط أتابع الأحداث بأعين لن يجد فيهما الناظر إلا الندم والحسرة...

لم يكن لي سلوى إلا ندى، التي كنت أحرص على متابعة جميع حلقات برنامجها، وأشاهدها وهي تنجح وتلمع أكثر فأكثر، حتى كادت أن تلامس السحاب...

كم أنتِ حنونة يا ندى...

لم يعد لي رفيق في دربي إلا أنتِ...

ولم يؤنس وحشتي سواكِ، حتى بعد كل ما مررتِ به... بسببي...

تمّت بحمد الله.